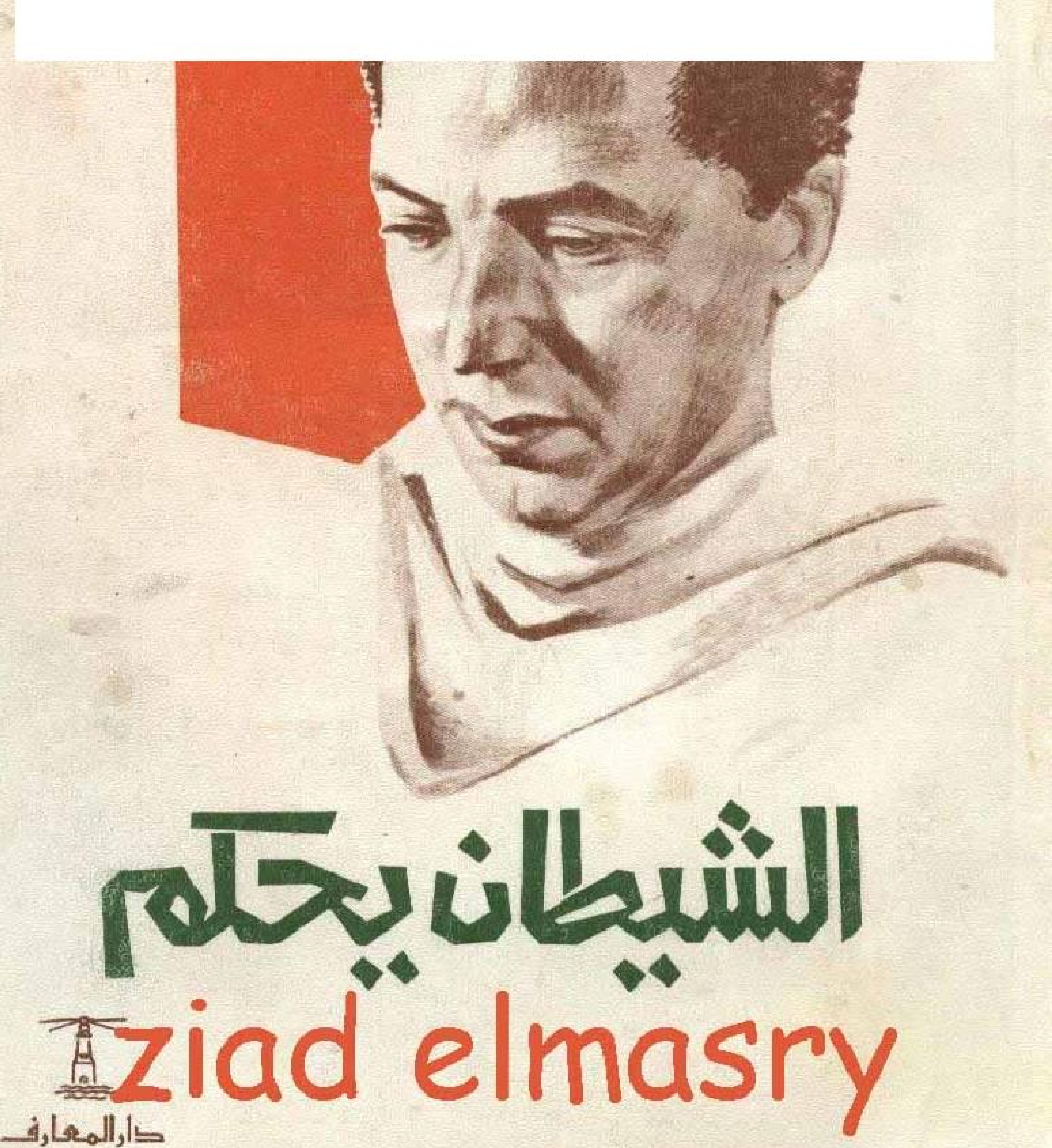
مصطفى محمود



الشيطان يحكم

دار المعارف

أفيون هذا الزمان

تتبارى أجهزة التليفزيون والإذاعة والسينما وصفحات المجلات والجرائد على شيء واحد خطير هو سرقة الإنسان من نفسه . شد عينيه وأذنيه وأعصابه وأحشائه ليجلس متسمراً كالمشدوه أمام التليفزيون أو الراديو أو السينما ، وقد تخدرت أعصابه تماماً ، كأنه أخذ بنجاً كليًّا وراح يسبح بعينه مع المسلسلة ، ويكد ذهنه متسائلا : من القاتل ، ومن الهارب . وبين قاهر الجواسيس ، وريتشارد كامبل ، والأفيشات العارية فى المجلات ، والعناوين الصارخة فى الجرائد ينتهى اليوم والليلة . ويعود الواحد إلى فراشه وهو فى حالة خواء وفراغ وتوتر داخلى مجهول السبب . وحزن دفين كأنه لم يعش ذلك اليوم قطّ .

والحقيقة أنه لم يعش بالفعل ، وأن حق الحياة سلب منه ، وأنه سلب من نفسه ، وأخرج عنوة وألقى به فى مغامرات عجيبة مضحكة ، وتساؤلات لا تهمه على الإطلاق . من الذى قتل شهيرة هانم ! ولماذا تخون كلوديا

كاردينالى زوجها فى رواية « الذئب فى فراشى » ؟ وأين الكنز فى مسلسلة عبيد الذهب ؟ وأين الحقيقة فى رواية ارحمنى ياحبيبى ؟

ويمر اليوم تلو اليوم . وتظل هذه الأجهزة تقوم بما يشبه العادة السرية للمتفرجين . وتغرقهم فى نشوات مفتعلة إلى درجة التعب . ثم تلق بهم إلى الفراش آخر الليل منهوكى الأحاسيس . لا يدرى الواحد منهم ماذا به بالضبط . لماذا يشعر بأنه مجوف تماماً . وأنه لا يعيش أبداً . وأنه لا يقول مايريد أن يقوله ، ولا يسمع مايريد أن يسمعه . وإنما هو يربط فى أرجوحة تظل تدور به دوراناً محموماً حتى يغمى عليه تماماً وينسى ماكان يفكر فيه . وماكان يريد أن يقوله ، وماكان يريد أن يسمعه . وماكان يملأ منه القلب والعقل . ويتحول إلى حيوان أعجم مربوط العقل والإحساس إلى هذه الأجهزة الغريبة التى تفتعل له حياة كلها كذب فى كذب .

وهذه الظاهرة ظاهرة عالمية . بل هى من سمات هذا العصر المادى الميكانيكى الذى تحولت فيه أجهزة الإعلام إلى أدوات للقتل الجماعى .

وهو نوع من القتل الجميل الرائع . تخنق فيه العقول بحبال من حرير، وتخنق الخيالات بالعطور الفواحة . وتخاط فيه الشفاه بجدائل من شعر بريجيت باردو ، وأرسولا اندرس .

وكلما زادت مقاومة المتفرج لهذا الأفيون زاد المخرجون من المساحة العارية المسموح بها من صدر الممثلة ومن ساقيها ، وسكبوا كمية من الدم أكثر فى رواياتهم ، وكمية من البترول المشتعل أكثر على أعصاب الناس .

وحينما تنفجر الأعصاب فى ظواهر متشابهة مثل ظاهرة الخنافس

والهيبز . ورقصات الجرك المجنونة . وأدب الساخطين والغاضبين واللاعنين . فهى دائماً نتائج ذلك البخار المضغوط فى جماهير الشباب التى قضى عليها بأن تعيش أسيرة عنكبوت الإعلام . والأخطبوط ذى الألف اسم . الإذاعة والسينما والجرائد . ذلك السجن ذى القضبان الجميلة من الأذرع العارية فى المجلات والروايات لتعيش معزولة عن معركة المصير وعن الإدلاء برأى فى مأساة الحياة والموت التى تجرى على مساحة العالم كل يوم .

وحينما يدور الكلام عن عقار الهلوسة والماريجوانا ، والحشيش ، والهيروين . والكوكايين . والعصابات التى تروجه . فإنهم ينسون دائماً مخدرات أكثر انتشاراً وأخطر أثراً .

مخدرات تدخل كل بيت من تحت عقب الباب . وتقتحم على كل واحد غرفة نومه . وتزاحم إفطار الصباح إلى معدته وفنجان الشاى إلى شفتيه . تلك هى وسائل الإعلام التى تكاتفت فيما بينها — بتعاقد غير مكتوب — على أن تقتل الناس بقتل وقتهم . وتميتهم بالضحك والإثارة والنكتة البذيئة . وتلك الكلمة الغامضة اللذيذة التى اسمها التسلية .

وتحت شعار قتل الوقت يقتل الإنسان . ويراق دم اللحظات . ويسفك العمر . فما العمر فى النهاية إلا وقت محدود . وما الإنسان إلا فسحة زمنية عابرة إذا قتلت لم يبق من الإنسان أى شىء .

ومسئولية كل مفكر وكاتب أن يخرج على الخط . ويتمرد على هذا الاتفاق غير المكتوب بقتل الوقت فى محاولة شريفة لإحياء وقت الناس بتثقيفهم وتعليمهم والبحث عن الحق . لا عن التسلية وإشراك الناس فى

مأساة مضيرهم ، وإعادة كل واحد إلى نفسه وقد ازداد ثراءً ووعياً لا سلبه من نفسه وسرقته من حياته ، ورفع شعارات الحرية لتفسح الروح الإنسانية عن مكنونها .

على وسائل الإعلام أن تتحول من أفيون إلى منبه يفتح العيون والأحاسيس على الحقيقة ، ويدعو كل قارئ إلى وليمة الرأى ويدعو كل عقل معطل إلى مائدة الفكر ، فتكون كرحلة تحشد الحماس عند كل محطة تقف عندها لا كخيمة للغاز المسيل للدموع مضروبة على الناس أو قنابل دخان تطلق للتعمية .

إن حضارة الإنسان وتاريخه ومستقبله رهن كلمة صدق وصحيفة صدق وشعار صدق . فبالحق نعيش ، وليس بالخبز وحده أبداً .

وإذا كان السؤال المطروح الآن :

ماهى صحافة اليوم ؟

فهأنذا أقول لكم الجواب :

أن نقول الحق .

وأن نقول الجد .

وأن نقول المفيد والنافع والصحيح .

وأن نحيى وقت القارىء لا أن نقتل وقته .

الوقوع فى الفخ

كل فتاة تحب أن يُقال إنها حلوة وساحرة وفاتنة وملكة جمال ، والسؤال هو :

ما الجمال ؟ ! !

هل الجمال هو البودرة والأحمر والكريم والروج والكحل ؟

هل هو لون الشعر ، طول الشعر ، وشكل التسريحة ، ومقاس الصدر ، ومحيط الوسط ، وخرطة الرجلين ، واستدارة الردفين ؟

هل الجمال فستان وباروكة وبوستيش وشنطة وجزمة ونظارة ؟

المرأة يخيل لها ذلك .

كل تفكير المرأة فى شكلها .. فى مقاساتها الخارجية .. فى اللون والنقشة التى ترسمها حول العين والحاجب والشفة .

يخيل لها أن الجمال يمكن رسمه على الوجه ، ويمكن تفصيله بالتحزيق والتقميط والمكواه والمشط .

وتنسى أن كل هذا طلاء ودهان . وأنه سوف يذوب ساعة أن تضع رأسها تحت الحنفية . وسوف يتحول إلى وجه بلياتشو بعد أول موجة من العرق . وأنها بعد مشوار فى الحر سوف تتحول إلى امرأة أخرى . لأن كل ماصنعته كان ديكوراً من الخارج . كل مافعلته كان سلسلة متقنة من الأكاذيب .. وعملية رائعة من التلفيق اشترك فيها العطار والصيدلى والخردواتى .

وهو تلفيق لا يمكن أن يكتب له الدوام .

حتى الجسم ومقاساته كذبة كبيرة أخرى سرعان ماتفتضح من أول حمل . فيتحول الغزال إلى حصان بلدى وخصر المها إلى خصر سيد قشطة .

والوجه الجميل والتقاطيع الدقيقة الحلوة هى نوع من الجمال يفقد تأثيره مع التعود والمعاشرة .

التعود يفقد الشكل طرافته وجدته وحلاوته .

وهذا حكم الجمال الخارجى . مصيره دائماً إلى الزوال وفقدان الأثر .

الجمال الخارجى مجرد مصيدة وجر رجل . منحة سخية من الطبيعة للمرأة لتصطاد بها رجلا . نوع من خداع البصر .

فإذا تم المراد ووقع الصيد السمين فى الفخ وعقد العقد ووقّع المأذون وانتقلت العروسة المزخرفة المزوقة إلى العش الموعود ومضى شهر وشهران بدأ الديكور يقع . وبدأ الطلاء يسقط والدهان يتشقق . وبدأت تظهر النفس التى وراء الزواق والطلاء .

ساعتها يبدو الجمال الحقيقى . إذا كان هناك جمال حقيقى .

والجمال الحقيقى هو جمال الشخصية . وحلاوة السجايا . وطهارة الروح .

النفس الفياضة بالرحمة والمودة والحنان والأمومة .. هى النفس الجميلة .

النفس العفيفة والعفة درجات . عفة اللسان . وعفة اليد . وعفة القلب . وعفة الخيال .. وكلها درجات جمال

والخلق الطيب الحميد

والطبع الصبور الحليم المتسامح .

والفطرة الصريحة البسيطة .

والروح الشفيفة الحساسة .

كل هذه ملامح الجمال الحقيقى

أى قيمة لوجه جميل وطبع قاس خوان مراوغ خبيث .

وأى قيمة لمقاسات الوسط والصدر .. والقلب مشحون بالطمع والدناءة .

وأى قيمة للشفاه المرجان واللسان يقطر بالسم والقطران .

وأى قيمة للساق الجميلة خرط المخرطة التى تمتد لك بشلوت . والذراع الفاتنة التى تمتد لك بقبقاب .

وأى قيمة لباروكة لا يوجد تحتها عقل .

وأى قيمة لنهد نافر خصصته صاحبته لإرضاع العشاق لا إرضاع الأطفال . وأرداف تتزين للنزوات . وفم فاتن لا ينطق إلا الكذب

إذا أردت أن تحكم على جمال امرأة لا تنظر إليها بعينيك ، وإنما انظر إليها بعقلك لترى ماذا يختفى وراء الديكور .

وحذار أن تنظر إليها بعاطفتك أو غريزتك وإلا فإنك سوف تفقد عقلك من أول نظرة ثم يخيل إليك أنك أمام فينوس الخارجة من زبد البحر .

وفى ضباب الحواس وصخب الإثارة تستحيل الرؤية ، وتتحول حدائق الحيوان إلى جنات مغرمين ، وملامح القردة إلى تقاطيع الملائكة .

المرأة كتاب عليك أن تقرأه بعقلك أولا ، وتتصفحه بدون نظر إلى غلافه قبل أن تحكم على مضمونه .

ذوق الناقد وليس ذوق العاشق هو الذى سوف يدلك .

ولذلك تحرص المرأة بذكائها على أن تحولك إلى عاشق أولا حتى تفقد عقلك فلا ترى الحقيقة .

وأغلب الرجال لا يرون الحقيقة إلا بعد فوات الأوان .

والذين يرون الحقيقة يتحولون إلى فلاسفة ، فيعشقون الحقيقة لذاتها وينسون المرأة . ويؤلفون الكتب فى دراسة الجمال وفلسفة الجمال وينسون حكاية المرأة الجميلة .

وحتى هذا الفيلسوف لا تعدم المرأة وسيلة للضحك عليه فتقابله كل يوم وتحت إبطها كتاب .

لقد وضعت الروج المناسب للرجل المناسب .

أحبوا أنفسكم

إن من يقتل أخاه لا يكره أخاه ، وإنما يكره نفسه .. فاليد لا ترتفع لتقتل إلا إذا كانت النفس من الداخل يعتصرها التوتر .

القاتل لا يعلن الحرب على الآخرين إلا إذا كانت الحرب قد أعلنت داخل نفسه واشتد لهيبها ، وثار غبارها فأعمى العيون والأبصار .

المجرم هو دائمًا إنسان ينزف من الداخل .

أما من يعيش فى سلام مع نفسه فهو يعيش دائمًا فى سلام مع الآخرين . إنه لا يستطيع أن يكره ، ولا يخطر بذهنه أن يرفع سلاحًا فى وجه أحد . إنه قد يطلق ضحكة أو يترنم بأغنية ، ولكنه أبدًا لا يفكر فى أن يطلق رصاصة .

وإنما تولد الكراهية للآخرين حينما تولد الكراهية للنفس .

خصومتنا لأنفسنا هى القنبلة التى تنفجر حولنا فى كل مكان .

منذ اللحظة التى نختصم فيها مع نفوسنا لا نعود نرى حولنا إلا القبح

والدمامة ومبررات القتل والثأر . ونحن فى الحقيقة نحاول أن نثأر لأنفسنا من أنفسنا .

وإنما تبدأ الهدنة بين كل منا والحياة حينما يرتضى نفسه ويقبلها . ويقبل قدره ومصيره . ويبنى بذلك الجسور السليمة التى يعبر عليها إلى جمال الحياة حوله ويراه . وطيبة الناس حوله ويحس بها .

إنه يشعر أن الزهر يبتسم . لأنه يرى ابتسامته الداخلية منعكسة عليه . ويقول إن الدنيا حلوة . والحقيقة أن نفسه هى الحلوة . لأنه لا يرى الدنيا ، وإنما يرى صورة نفسه كما تعكسها له الدنيا .

أمّا الإنسان الحقود فهو إنسان معتقل من الداخل . سجين قفصه الصدرى ، لا يستطيع أن يمد يديه إلى أحد ، لأن يديه مغلولتان . وشرايينه مسدودة وقلبه يطفح بالغل .

كيف يمارس الحب بحرية واختيار . وهو ذاته معتقل !

كيف يدرك جمال الكون وانسجامه وهو ذاته منقسم يفتقر إلى الوحدة الداخلية والانسجام ؟

وإنما تبدأ المحبة بتلك الحالة من السكينة الداخلية التى يبلغها الإنسان وكأنه فتح عينيه على ثراء داخلى لا حد له . تلك الحالة التى يتلقى فيها ذلك الضمان الغامض . ذلك الصك بأنه مؤمن عليه ضد المرض ، والشيخوخة ، والإفلاس ، والحرائق ، والفقر ، والحوادث . تلك الحالة التى يزول فيها الخوف تماماً ، وكأنما برقت البروق لحظة فإذا به يرى سفينته التى تتقاذفها البحار الهوج ، موثوقة إلى الأعماق برباط خفى لا انفصام له . وكأنما كانت

طول الوقت تلقى بمراسيها فى بر الأمان . وإن دلّ ظاهرها المرتجف المتقلب على غير ذلك .

ذلك اليقين العميق الذى يأتى من مكان مافى النفس ليغمر روح الإنسان بذلك الإيمان الثابت بأنه هنا ، وأنه كان هنا ، وأنه سيكون هنا . طول الزمان ، وأنه لم يولد ولن يموت ، وأنه شاخص حاضر أبداً كلحظة الحضور الأبدى ذاتها .

تلك اللحظة التى ينتفى فيها الخوف ويزول الاغتراب ، والتى يعود فيها ذلك المنفى أبدًا إلى وطنه ودياره . ويتعرف ذلك المغترب على ذاته باعتبارها نفخة من روح الله ويبتهج بها إذ يراها خالدة حقيقية لا يمسها الضر ولا ينالها الأذى لأنها منتسبة بعبوديتها ووجودها لله ذاته .

تلك اللحظة التى يفرق فيها بين أعراض الجسد الزائلة وبين ذلك الرسوخ والأمان والسكينة الدائمة التى تسبح فيها النفس ، والتى تكمن فيها فى لواذ دائم بتلك الأعماق الإلهية الهادئة مشرقة على الوجه بالابتسام فى أحلك الأوقات .

تلك الهدنة التى تنعقد بين الإنسان ونفسه وبين الإنسان وربه هى النبع الذى تتدفق منه المحبة لتحتضن الآخرين وتعانق الحياة .

لقد كانوا فى الماضى يبشرونكم بأن تحبوا الغير . ولكم أقول لكم أحبوا نفوسكم . أحبوا ذواتكم بحق . فبدون هذه الحبة لا يكون حب الآخرين ممكناً .

كيف تستطيع أن تصادق الآخرين وأنت عاجز عن مصادقة نفسك !

نحن نظن أننا نحب أنفسنا . ودليلنا على ذلك أننا نسقى أنفسنا الخمر كل يوم ونوفر لها المتعة . وحقيقة ما نفعل يدل على الكراهية لا على الحب ، فنحن نقتل أنفسنا بالخمر ، والتدخين ، والمخدرات ، والإفراط ، ولا نطيق دقائق قليلة من الوحدة مع نفوسنا فنستعين عليها بالمغيبات . هاربين من هذا اللقاء .

نحن أعداء نفوسنا . وهذه هى الحقيقة المؤلمة . وما أصعب أن نكون أصدقاء لنفوسنا .

الأنبياء وخدهم هم الذين استطاعوا أن يكونوا على وفاق ومحبة مع نفوسهم ، فاستطاعوا أن يكونوا على وفاق ومحبة مع خالقهم ، فاستطاعوا أن يعطونا ويعطوا الدنيا الكثير .

واللقاء مع النفس شاق . وتمام الوفاق مع النفس أشق وأصعب . وذلك الانسجام الداخلى ذروة قل من يبلغها .

ولكن الأمر يستحق المحاولة .

٤١٨ نعشاً

فى إحدى المدن الأمريكية تحرك موكب من ٤١٨ نعشاً . المرافقون للجنازة كانوا يلبسون الكمامات .

وعلى طول الطريق أعلنت حالة الطوارئ فى المستشفيات . ووزعت الأقنعة والعقاقير المضادة .

ومرت هذه الجنازة الغريبة فى طريقها لتلقى بحمولتها من النعوش فى مقبرتها فى قاع المحيط على عمق ألف وخمسمائة قدم .

وكان المشيعون يرتجفون رعبًا لا حزنًا . فقد كانت تلك النعوش الرهيبة هى صناديق من الصلب تحوى أطنانًا من غاز الموت . كل نعش به ثلاثون صاروخًا معبأة بغاز الأعصاب القاتل . أى أكثر من ١٥ ألفا صاروخ فى مجموعها . إذا تسرب من أحدها الغاز فإنه يقتل من يشمه فى دقائق .

وقد قررت أمريكا التخلص من هذه الغازات ليس حبًا فى السلام . ولا زهدًا فى القتل ، ولكن لأنها اخترعت وسائل ميكروبية وكيمائية أشد

فتكًا من هذا الغاز الروبابيكيا ... واستحدثت موضات أسرع فى الإجهاز على ضحاياها من هذا الغاز الموضة القديمة .

لقد بلغت سرعة تطور العلم والأسلحة الفتاكة لدرجة أصبحت المشكلة هى : كيف السبيل إلى التخلص من الأسلحة القديمة . ومن وسائل الموت المتخلفة .

إن اختراع المدفع الرشاش كان إيذاناً بنهاية عصر بندقية الخفراء . وقنبلة الهاون طردت قنبلة مولوتوف من السوق . والقنبلة الذرية جعلت الحرب التقليدية مثل حرب الهراوات .

وغاز الأعصاب جعل غاز الخردل موضة قديمة .

واليوم غاز الأعصاب أصبح روبابيكيا .

وظهرت موضة حرب « الطولاريميا » وهو توكسين ميكروبى يوضع فى الأنهار فتموت مدن على بكرة أبيها .

وقنبلة هيدروجينية مدارية توضع فى قمر صناعى يدور فى فلك حول الأرض ثم توجه للسقوط بأزرار من قواعد إلكترونية على الأرض فيقع الموت على قارات فيغرقها .

وفى الطريق قنبلة الكوبالت ..

وقنبلة النيوترون ..

وقنبلة ثالثة تحت الطبع يمكنها إن تشق الأرض نصفين مثل البرتقالة أو تنثرها أجزاء .. فتحول الأرض إلى سحابة من الحصى تسبح فى الفضاء .

والدول الكبرى تتسابق الآن فى التخلص من ترساناتها من الأسلحة

القديمة بإلقائها فى حرب فيتنام وكوريا وأفغانستان وبيعها للدول المتخلفة وآخر خبر أن تشيعها فى جنازة رسمية وتلقى بها فى البحر . فليس من حسن السمعة أن تحتفظ الدولة الكبرى فى ترساناتها بسلاح ضعيف . وأمثال تلك الأسلحة الرحيمة التى لا تقتل إلا ألوفًا يجب أن تدفن فى مقبرة تليق بها .

هى إذن جنازة لتشييع الرحمة والرفق والرقة لتدفن وتغيب عن سمع العصر الجديد وبصره . عصر الموت الشامل والقتل الصاعق بضغطة على زر بدون حاجة إلى مواجهة أو شجاعة .. فالشجاعة والفروسية هى أيضًا موضة قديمة يجب أن تدفن . ونحن اليوم فى عصر القتل بنذالة ، وترك المواجهة ليتولاها ميكروب فى الظلام . أو سم قاتل يتسلل فى خفاء إلى العروق ، أو غاز بلا رائحة يتلصص إلى الصدور ، فى حين أن أصحاب هذه الصدور يتنفسون غافلين فى أمان .

إنها حرب الثوانى الست ، وقتال المكيدة ، والطعن فى الظهر ، والفخ الإلكترونى الغادر . لن يستطيع الجندى الغالب فى حرب المستقبل أن يقول أنا بطل . ولا الجندى المغلوب أن يقول . أنا شهيد . لأن البطولة سوف تتوارى ليحل محلها المكر واللؤم .

سوف تنتصر الميكروبات وتكسب لنا الحروب .

سوف تكون ماريشالات المستقبل .

ياله من تقدم ؟ ! !

أخيرًا عرف الإنسان مكانه خلف الميكروب ، ووراء الفيروس . وتحت قيادة الجراثيم .

طالع الشجرة فى لندن

وهى غير الشجرة التى طلعها توفيق الحكيم .

إنها مسرحية تعرض على مسرح « كوين » فى لندن . امتدادًا لعرض مستمر ناجح منذ شهور .

بريخادير إنجليزى عائد من الملايو بعد خدمة عشرين عاماً فى جيش الإمبراطورية . وعلى وجهه كل كبرياء الضابط الإنجليزى حارس الأمجاد التليدة . وهو يدخل الشقة التى مر عليه عشرون عاماً بدون أن يراها ليفاجأ بأن أولاده خنافس وهيز . قد أطالوا شعورهم ووضعوا فيها الريش . ورسموا على خدودهم نجومًا وأقمارًا ... وبنته تدخل حاملا فى شهرها الأخير . فيحتضنها الأب ويقول لها : « مبروك ! متى تزوجت ؟ » فتضحك الابنة فى مرح قائلة : « أوه يا بابا جواز إيه وبتاع إيه .. ده جه كده وكده من غير جواز ولا حاجة » .. فيقول الأب مبهوتًا : « كده وكده ازاى .. أليس له أب ؟ » فتضحك الابنة فى بساطة : « أوه يابابا . إنهم كثيرون ..

كيف أعرف من فيهم الأب » !

وبكل برود الأب الإنجليزى لا نرى الرجل يشخط وينطر . ولا نراه ينزل فى أولاده بالأقلام والشلاليت ، وإنما يجلس فى هدوء ويجمعهم حوله قائلا فى تفكير :

– يبدو أن هناك أشياء كثيرة حدثت فى لندن ، أثناء غيابى ، فقد أصبحتُ متخلفاً جداً . أرجوكم تعالوا فهمونى . لابد أن لكم فلسفة معينة فى هذه الأمور ...

– بالطبع يابابا . إنها مسائل فلسفية بالدرجة الأولى . إنها الحرية . نحن طلاب حرية . لم نعد نريد وصاية من أحد . الأجداد كذابون . والآباء منافقون . والوعاظ مرتزقة ، والشعارات تجارة . والمبادئ سلالم وصول كفى .. لا نريد من أحد أن يعلمنا الأدب ولا دخول الحمّام ولا قص الأظافر . نحن أحرار . أحرار . أحرار ، حتى من العمل . نعم ، لن نعمل . سوف نشحذ لنعيش . ألا ترى أن ذلك سيكون أكثر حكمة ؟

ويفكر الأب قليلا ثم يجيب :

– و الله إنها أفكار جديرة بالتأمل فعلا . أعطونى فرصة حتى أحاول أن أفهمكم ...

فإذا كان الفصل الثانى فوجئنا بالبريجادير يدخل وهو عار وفى رأسه ريش ، وعلى صدره وشم ورسوم ، وعلى جبينه عصافير ، يدفع أمامه عربة روبابيكيا مكتوباً عليها « أنا أطرش وأخرس ، ومحارب قديم فى جيش الإمبراطورية .. أعطونى زجاجة ويسكى لله ! »

يدخل البريجادير بهذه الصورة على أولاده فيتجمدون فى أماكنهم فاغرى الأفواه . وكأنما نزلت عليهم صاعقة . ثم يقول الابن فى اشمئزاز :

– هذا بشع يابابا . ماذا فعلت بنفسك !

– أنا ياولدى آمنت بفلسفتكم وهذا كل ماحدث . أنا أيضاً حر . حر فى ألاّ أستحم . وفى أن أسير عرياناً وأضع فى رأسى ريشاً مثلكم تماماً . أنا مقتنع . أليس لى الحق .

– ولكن هذا فظيع . ماذا سيقول عنا الجيران . وقسيس الناحية ؟

وتصيح الابنة :

– لقد أنزلت بنا عاراً لا يمحى . سوف تصبح أضحوكة الحى !

– وأنت يامارى التى حملت سفاحًا . ألم تنزلى بى العار ! !

– ياإلهى لقد كنت أمرح ! ! هذه مسائل طبيعية جدًا . لماذا نعقد الأمور ، وأنا فى النهاية حرة . ولدت حرة مثل شعاع الشمس . ولى كامل الحق فى أن ألعب وأمرح .

– حسناً يابنتى وهذا ماأفعله . أنا أيضاً أمرح مثل شعاع الشمس .

– ولكن ماتفعله شىء فظيع فظيع . إنك تشحذ .

– ولكن يأولادى . أليست هذه هى آراؤكم نفسها التى تروجونها ؟ ألا تؤمنون بما تقولون؟ أم إنها مبادئ للاستهلاك الخاص !

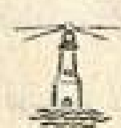
– ولكن يا بابا انظر لنفسك فى المرآة . وماذا تكتب على هذه العربة . أطرش وأخرس وتريد زجاجة ويسكى لله . ياللفظاعة !

فإذا كانت نهاية الفصل الثانى وجدنا الأبناء قد عادوا إلى ارتداء ثيابهم

مصطفى محمود

الشيطان يحكم

الطبعة السادسة



دار المعارف

النظيفة ، ووجدت الابنة لها زوجاً ليسترها . فى محاولة لإغراء الأب بالإقلاع عن هذه البشاعات .

وترتفع الستارة عن الفصل الثالث لنفاجأ بأن الأب مستمر فى الشحاذة وفى تربية أظافره وشعره وهو يقول لأبنائه فى هدوء . إنه لن يقلع عن هذه الفلسفة الجديدة لأنه ببساطة شديدة مقتنع بها ومؤمن بها بكل حماسة وإخلاص فهو يراها لا تكلف شيئًا . وأكثر من هذا ، فقد أضاف إلى الفلسفة بضعة تعديلات مبتكرة وطورها ، على حد تعبيره . فمن اليوم لن يسكن فى البيت ، ولكنه سوف يسكن على شجرة .

ويصرخ الأبناء ويدقون على صدورهم .

ولكن الدنيا تتغير بسرعة دائمًا .

وفى ختام المسرحية نكتشف أن جميع لوردات إنجلترا ، كل واحد قد اختار شجرة ينام فوقها . وأن موظفى السكرتارية لا يعرفون كيف يستدعونهم لاجتماعات مجلس اللوردات !

لماذا الملل

حضارة اليوم طابعها الملل .

الحب يولد ليموت . والمرأة طبق شهى لوجبة واحدة ثم يصفق القلب طالبًا تغيير الطبق . العين تمل ، واللسان يمل ، والمعدة تمل .

الأسطوانة تكتسح السوق اليوم . وغدًا لا تجد من يشتريها .

الموضة الفستان الجرار المتهدل على الساقين .

الموضة فوق الركبه .

الموضة المفتوح .

الموضة المقفول .

الموضة الشوال .

الموضة الممزق .

التغيير . التغيير .

حتى فى الفكر والفن .

سارتر ينادى بالوجودية .

سارتر يهجر الوجودية .

سارتر يقول أنا ماركسى .

راسل شيوعى .

راسل يهاجم الشيوعية .

الواقعية فى الفن .

السيريالية .

التكعيبية .

التأثيرية .

كل مذهب ينتشر يفقد قيمته .

وكل فلسفة يظهر لها متحمسون فدائيون ثم ينفض من حولها السامر ، تماماً كماركات العربات . وتسريحات ذيل الحصان .

الملل . الملل .

كل جديد يصبح قديماً بمجرد تداوله .

وكل لهفة تتحول إلى فتور ثم ضجر قاتل .

وطريق الخلاص سيجارة وكأس . ولفافة مخدر وقرص منوم ، وألف مسكن ومسكن للأعصاب . وأبونيه عند أطباء الأمراض النفسية .

لم يعد زبون الكباريه تثيره مفاتن الراقصة العارية التى كشفت له عن مفاتنها ثم دعته إلى شقتها

ولكن اللذة الطبيعية أصبحت عادية . والحواس تبلدت

والملل يلتمس مهرباً أخيراً فى الشذوذ .

ثم فى الإفراط إلى حد الإعياء .

ولا حل .

وفى محاولة أخيرة يلجأ الزبون إلى مائدة القمار .

ثم ينحدر برجليه خطوة خطوة فى طريق الانتحار .

أفيشات السينمات . إعلانات الصيدليات .

عناوين الكتب « مانشيتات » الجرائد . صور الكباريهات . تصرخ نحن فى عصر الملل .

الوجوه الشاحبة . والأذرع المدلاة . والعيون المحمرة ، والأنامل المرتجفة فى عصبية . تصرخ : نحن فى عصر الملل . الحب كذبة عمرها عمر المناورات والمناوشات . تذكيها الإثارة . وحمى يؤججها التمنع والتدلل حتى تصل إلى الفراش فتهبط الحرارة . ويشفى الحبيبان ، ويستحمان فى عرق العافية . ويتحول الحب إلى عادة حميدة يعقبها دش مرطب وأكلة طيبة ، وأمل خبيث فى مغامرة جديدة تنعش الذى مات من العواطف .

النقود تثيرك طالما هى فى جيب غيرك . فإذا دخلت جيبك فقدت جاذبيتها .

الشهادة حلمك وغايتك وأملك حتى تحصل عليها فتنسى أمرها تماماً .

الوظيفة هدف براق حتى تنالها فتتحول إلى عبء ثقيل .

لماذا كل هذا الملل .

لأننا فى عصر إفلاس القيم

قيمة الحب التى تروجها الأغانى والروايات سقطت وأفلست . لأن المرأة لا تصلح لأن تكون هدفاً يُطلب لذاته .

المرأة طريق .

نحن نحب المرأة الجميلة كطريق يوصلنا فيما بعد إلى محبة الجمال .

المرأة نافذة إلى شىء وليست هدفاً نهائياً .

وإذا اتخذناها هدفاً نهائيًا كما تقول لنا الأغانى والروايات فإننا سوف نقتل هذا الهدف بحثاً فى الفراش ، ولن يتبقى لنا شىء نجرى وراءه .

المرأة زيت يوقد المصباح لنرى على ضوئه أشياء أخرى غير المرأة . معانىَ وقيماً ومثاليات نعشقها بلا ملل .

وبدون مثاليات وبدون إيمان لا يمكن لحياة أن تُعاش .

وحضارة هذا العصر سقطت . لأن مافيها من فكر مادى أسقط الأديان . ولم يستطع أن يقيم لها بديلا روحيًا .

إنه يقول لك إنك تستطيع أن تدخل الجنة بخمسين ليرة فى الكازينو . فترى الحور العين من اللؤلؤ المكنون لابسات الحرير . وترى أنهاراً من الخمر ، وأنهاراً من العسل .وزيادة على ذلك تستمتع بفرق أكروبات ، وتجرب حظك على مائدة الروليت .

وفى المدرسة يعلمونك أن آدم ليس من تراب ولكن من أسلاف من جنس القرود . وأنه سليل تطور انحدر من الحشرات وميكروبات المستنقعات .

وبسقوط هيبة الأديان يقف الإنسان وحيدًا بلا سند . بلا إيمان ، فى

انتظار جودو الذى لا يأتى .

كل ما يملكه حياة فانية بعدها التراب ولا شىء . وهو يتحول بهذا بدون أن يدرى إلى يأس قاتم لا مخرج منه . وعطش لا ارتواء . له فهو يتنقل من لذة لا تروى إلى لذة لا تروى .. لا شبع .. ولا نهاية .

فهو قد اكتشف أن لا شىء حقيقى

لا قيمة باقية ولا معنى لشىء .

الملل هو كل ماتبقى له .

وهو ملل لاعلاج له إلا بالعودة إلى فكرة الروح إلى الايمان . بأن الإنسان لا يموت ، وأن فى الدنيا قيماً خالدة . وأن هناك حقيقة خلف عالم الظواهر والأوهام .

حقيقة تبث فى من يبحث عنها الحماس الذى لا حد له .

الرقص للرقص

إذا كنا نأخذ موسيقى الجاز الآن من أمريكا فهى قد أخذتها من قبل من إفريقيا ... فهى إذن بضاعتنا ردّت إلينا فى عبوة جديدة .

والرقص يتطور أكثر فأكثر فى اتجاه الإيقاعات الزنجية ... انتهى رقص زمان الرومانتيكى الحالم الذى يتلاصق فيه كل راقص مع رفيقته الخد على الخد ، والصدر على الصدر ، والفخذ على الفخذ ، ويتمايل الاثنان ذلك التمايل المخمور البطئ مع التانجو . والاثنان فى أحسن الحالات فى دور إغماء عاطفى ، وفى أسوأ الحالات فى دور إغماء جنسى .

مثل ذلك الرقص القديم كان قيداً أكثر منه حرية . وكان الفرد فيه يضيع فى قبضة العاطفة ، وكانت الرقصة ذاتها وسيلة تقرب بين الذكر والأنثى ، وأسلوباً مهذباً من أساليب الغزل .

أمّا الآن فإن الرقص تطور الى رعشات فردية مجنونة ورقصة مثل رقصة الجيرك هى رقصة فردية تماماً .

يرقص فيها الفرد لنفسه وللرقص .. لا يمسك ذكر بأنثى ولا أنثى بذكر . وإنما كل واحد فى عالمه يغنى فى واديه .

وتتحول الحركة إلى وسيلة تعبير عن الخبايا النفسية العميقة والضغوط السيكولوجية . والتوترات الذهنية . ووسيلة تفريج عن مختلف الطاقات المكبوتة بأسلوب برئ وفنى فيه ابتكار وإبداع . ويمكن أن ترى الشاب فى لحظة الاندماج يؤدى مايشاء من الحركات بدون قانون سوى الموسيقى ذاتها . وسوى قانون النفس . فهو يلاكم الهواء ، أو يلطم . أو يندب . أو يتلوى فى شاعرية . أو يضرب نفسه . أو يتقافز مثل كرة من المطاط . أو يصفق ويصرخ ويدق الأرض احتجاجاً ...

وهو مغمض العينين لا يرى أحداً .

وهو لا يتقرب برقصته إلى أحد . ولا يتماسك مع أحد . وإنما هو وحده مع كهنوته الداخلى . فهى رقصة حرية وفردية . وهى وسيلة تعبير بالفن والحركة عن المكنونات النفسية .

ومثلها كثير من الرقصات الفردية العنيفة التى انتشرت فى هذا العصر . وهى أشبه بمظاهرات احتجاج وعرائض شكوى أسلوبها الحركة ولغتها الموسيقى .

وهذا اللون من الرقص أفضل من الرقص العاطفى المخمور . وأكثر حرية ، وأكثر براءة من التانجو الحالم الذى كنا نراه فى كباريهات زمان . وهو لون من التنفيس والتفريج الصحى عن طاقات الشباب العنيفة .

وهو صورة طبق الأصل من الراقصات الزنجية التى شاهدتها فى الغابة .

يرقصها الزنوج عراة فى ضوء القمر على نغمات الطبول . ولا يتخاصر فيها رجل بامرأة ولا امرأة برجل . وإنما كل واحد يهيم وحده فى عالمه يغنى ويصرخ ويولول ويدق على صدره ويشكو إلى خالقه من ظلم هذه الدنيا بتلك اللغة الخرساء البليغة التى اسمها الحركة .

والرقص الآن هو زار مودرن يشترك فيه بنات وأولاد ركبهم شيطان الشباب وجن الرغبات المكبوتة .

وينفخ الزامر فى مزماره ليعلن الشيطان عن نفسه ويخرج من القمقم ، وتنطلق الأحزان الدفينة كالجن من مخابئها .

وبعد ساعة من هذه التشنجات تهدأ النفس الثائرة وتعود إلى اتزانها .

وأمثالنا من الجيل الوقور المهذب الذى لم تتح له هذه الفرصة للتفريج عن أزماته والتنفيس عن غليانه الداخلى .. كانت تنتهى به أزماته إلى تشنج مرضى . فيتشنج المصران ويؤدى إلى حالة «قولون» مزمنة . أو يتقلص الشريان التاجى ويؤدى به إلى حالة ذبحة . أو تشنج الشعب الهوائية وتؤدى إلى حالة ربو .

ومثل هذه الرقصات العنيفة هى صمامات أمن ومنافذ وقائية للشخصية المتوترة . وهى أحياناً أدوية أكثر نفعاً من أقراص اللومينال والبرترانكيل ... وهى رياضة فى عصر هو بحق عصر الانفجار .

التقدم إلى الخلف

حينما اكتشف الرجل الأوربى البخار والكهرباء . وصنع الصلب والقطارات والطائرات ، وأضاء المدن فأحال ظلامها نهاراً امتلأ شعوراً بالسعادة والعظمة .

وحينما وضع قدمه فى أفريقيا السوداء، نظر إليها نظرة السيد إلى ملايين العبيد المتخلفين المتأخرين ، المتبربرين المتوحشين . وشعر بأن عليه واجبَ الأخذ بيد هؤلاء الحيوانات إلى نور المعرفة والعلم والوصايا العشر .

وبين زنوج عراة حفاة وقف المبشر الأوربى فى ثياب نظيفة يقول لكل واحد :

لا تسرق ...

ونظر كل عريان بجواره يتساءل : نسرق ماذا ؟

لا أحد يملك حتى خرقة على جسده ، والطير يمرح على الشجر لمن يصطاده ، والأرض مجاناً لمن يزرعها ، والفاكهة دانية لمن يقطفها ...

نسرق ماذا .. ولماذا ؟

أسهل على الجمل أن يدخل ثقب إبرة من أن يدخل الغنى جنة الله .

ولكن من هو الغنى ؟

الذى يملك .. الذى عنده نقود أكثر . الذى عنده سندات وعقارات أكثر .

ولكن ليس بيننا من يملك أكثر ولا من يملك أقل . ولا نعرف ملكية . ولا نعرف نقودًا . وليس بيننا من يملك سندات وعقارات .

هذا عين التأخر والبربرية والوحشية !

سوف يصك لكم الرجل الأوربى النقود . سوف يجعل بعضكم فقراء وبعضكم أغنياء . سوف يجعل بعضكم يملك وبعضكم لا يملك . وهكذا تنشأ بينكم الأحقاد فتعرفون معنى الوصايا العشر .

ولكن مابال الرجل الأوربى نفسه لا يعمل بالوصايا العشر ؟

لماذا يسرق خيرات الغابة ويشحنها فى البواخر المتراصة على الشاطئ إلى بلاده ؟ لماذا يقتل العبيد بالسخرة فى المناجم ؟ لماذا يتزوج واحدة ويزنى بألف . ولماذا يكذب على نفسه وعلينا وعلى الله ؟ !

وظلت الحياة تسير فى رتابة بين المتوحشين المتبربرين تحصدهم الأمراض ، وتتحالف عليهم الملاريا والحمى الصفراء ، والحيات والأفاعى ، ورصاص المستعمرين .

وتولى الرجل الأوربى مهمة قتل نفسه فى حربين عالميتين .

وتولى حصاد المدنية التى أقامها . كلما بنى هدم . وكلما أقام حطم .

ولكن الأدوات فى يديه ظلت تتقدم من طائرات إلى صواريخ ، ومن كهرباء إلى ذرّة .

وهاهو ذا اليوم قد امتلأ شعوراً بالثقة . وقد ازداد تأكداً أنه أصبح السيد بالفعل .

سيد من ؟ ! !

سيد على الطبيعة وعبد لنفسه !

وهو يزداد عبودية لهذه النفس كل يوم .

تستهويه البضائع الاستهلاكية فى الفاترينات . وتستعبده الثلاجة والغسّالة والعربة البويك . والريكوردر . والترانزيستور .

وسيطرة البضائع الاستهلاكيه والترف الشخصى تفرض نفسها على بلد رأسمالى كأمريكا كما تفرض نفسها على بلد اشتراكى كروسيا .

ومن أجل مزيد من الترف والبضائع الاستهلاكية لكل فرد . ومن أجل السيطرة والتحكم فى الآخرين سوف تقوم حرب ثالثة . فلم تعد المسألة مسألة مذاهب . وإنما حقيقة المسألة أن الإنسان لم يتقدم وإنما تأخر . وهو كل يوم يتأخر .

الأدوات فى يديه هى التى تقدمت وتحول هو من صانعها إلى خادمها . ثم إلى عبدها .

لكن كل هذه البضائع الاستهلاكية ليست أكثر من لعب أطفال فى فاترينة ، وكل ماأحرزه الإنسان من تقدم هو تقدم شكلى .

والإنسان فى أثينا ، منذ أكثر من ألفى سنة ، أيام سقراط وأفلاطون

وأرسطو ، كان أكثر تقدماً . وكان يعرف طريقه الصحيح إلى التقدم بالفعل . كان يبحث كيف يعرف نفسه ، وكيف يتخلص من عبوديتها ، وكيف يحقق الحرية ، وكيف يحقق العدالة ، وكيف يصل إلى معرفة الله . وكان كل واحد يناقش الآخر فى حرية .

أمّا اليوم فكل واحد يطلق على الآخر الرصاص .

ولا أحد يفكر كيف يعرف نفسه ، ولكن كيف يشبع نهم تلك النفس الجشعة بلا حدود .

والنفس تدفن شيئاً فشيئاً تحت ركام البضائع الاستهلاكية ، يخنقها طمعها اللانهائى .

نحن نتأخر .

الأدوات فى أيدينا تنمو فى القوة باطّراد حسابى كما تنمو الأموال تلقائياً فى البنوك .

ولكن التقدم ليس أن تنمو الأدوات ، وإنما أن ينمو الإنسان .

ليس أن يسيطر الإنسان على الآخرين ، وإنما أن يسيطر على نفسه . على غضبه .

ليس أن يمتلك الإنسان القوة . بل أن يمتلك الرحمة .

ليس أن يفرض الشرق مذهبه على الغرب ، ولا أن يفرض الغرب مذهبه على الشرق ، وإنما أن ترحب الصدور ليقول كل واحد كلمته .

صحيح أننا الآن نركب صواريخ ونسير بسرعة . ولكن إلى وراء . وإلى تحت ، وإلى خلف ، وإلى دغل كثيف نعود فيه حيوانات أكثر افتراساً من

كل الحيوانات . حيوانات مخالبها ذرية وأنيابها نووية . مسوخ اختل فيها التوازن فأصبحت لها أبدان هائلة ، وقلوب ضئيلة ، وأرواح هزيلة .

الجنس البشرى الآن هو الديناصور الجديد الذى سوف ينقرض .

واقرءوا التاريخ لتعرفوا كيف كان على الأرض منذ ملايين السنين حيوان هائل ضخم كالجبل ، يحكم جميع الحيوانات ، اسمه الديناصور ، ثم انقرض وهلك . والسبب أنه كان قويًّا جدًّا ومغفلاً ..

من أين تنبع السعادة

منذ ألف سنة كان السفر إلى اليمن على الأقدام يحتاج إلى أعوام . يحمل المسافر خيمته وزاده وزواده وزكائب التمر والبلح والخبز المكسر ويتوكل على الله .

وبين الفيافى والجبال والوهاد والأحراش يطل عليه الموت من أنياب ذئب جوعان ، أو قاطع طريق متربص ، أو حَرٍّ لافح يقصم الظهر ، أو برد قارص يثلج العظام .. فإذا وصل سالماً فهو قد وُلد من جديد . وهى الفرحة التى لا تدانيها فرحة .

والمليونير على أيامها لم يكن يمتاز على الصعلوك إلا فى الخيول المطهمة . كان الفرس هو السيارة التى تختصر الأعوام فى شهور ، وكانت هذه هى سرعة البرق زمان .

وعرفنا السفن الشراعية لننتقل من أهوال البر إلى أهوال البحر يقلع المسافر فيمسك بأنفاسه وقد أدرك أنه أسلم نفسه إلى غول لا يعرف

الرحمة . فإذا وصل إلى بر الأمان دقت له الطبول والمزامير ، واستقبلته الأحضان . وسجد لله شكراً من فرحة الوصول .

أما اليوم فنحن نقطع المسافة بين القاهرة وأسوان فى ساعات بالقطار ، ونشعر طول الوقت بالملل والضجر والبطء ، وننظر إلى ساعاتنا ، حتى إذا وصلنا سالمين بدأنا نسب ونلعن لأننا تأخرنا نصف ساعة .

ونركب الطائرة النفاثة لنصل إلى بيروت فى دقائق ، ونشكو مر الشكوى لأن الضباب والعواصف أخرت وصولنا عشر دقائق .

وحينما نسافر غداً بالصواريخ إلى المريخ سوف نكون أكثر مللاً وتعجلاً وسنقول . ماهذه الصواريخ اللكع ؟ ألا يعرفون فى مصلحة الصواريخ قيمة الوقت ؟

وسوف تتضاعف قيمة الوقت بالفعل

ستكون الساعة كافية للدوران حول العالم ، وسيكون الشهر مهلة عظيمة لجولة فى المجموعة الشمسية

وسوف تزداد الإمكانيات ، ولكن سوف تتضاءل السعادة

كلما ازدادت الإمكانيات ازداد الطمع .

وكلما ازدادت السرعة ازدادت العجلة .

وكلما ازداد الترف ازدادت الشكوى .

تماماً مثل حكاية الغنى الذى يزداد طمعاً كلما ازداد ثراء

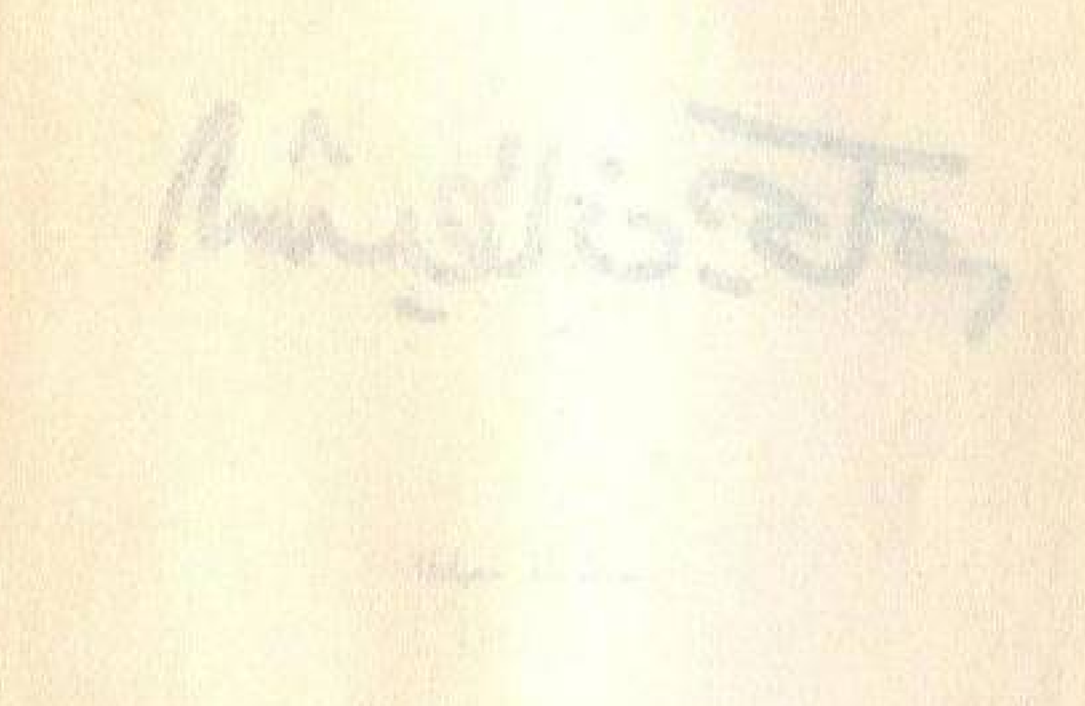
وهذا شأن المكاسب المادية . كلما ازدادت ازداد الافتقار إليها وإلى المزيد منها ، وبالتالى ازدادت التعاسة .

لأن السعادة موطنها القلب وليس الجيب ، ولا عبرة فيها بازدياد الإمكانيات المادية .

السعادة تنبع من الضمير . ومن علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بالله وهى فى أصلها شعور دينى وليست شعوراً مادياً .

وهى تنبع من إحساس الإنسان بأنه ليس وحده وأن الله معه . وأن العناية تحوطه والإلهام الخير يسعفه . وأنه يقوم بكل واجباته

ولهذا يمكن أن ينتحر مليونير يملك باخرة وطائرة وعدة ملايين من الدولارات فى حين تجد الراهب الذى يعيش على الكفاف يضئ وجهه بسكينة داخلية لا حدَّ لها . ويسارع إلى نجدة الآخرين فى محبة وسعادة . لأنه يؤمن بأن للحياة معنى وحكمة ، وأنها لم تخلق عبثاً . وإنما خلقها العادل الرحيم



الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

هل يسير العالم إلى دعارة ؟

الهر يواخيم دريسن يهودى ألمانى ٣٦ سنة صاحب مجلة « سانكت باولى تسايتونج » فى هامبورج أنشأ حزباً سياسيًّا جديداً أسماه « حزب الجنس » وشعار هذا الحزب هو المطالبة بالحرية الجنسية للجميع .. وتدريس العملية الجنسية للأولاد والبنات عمليًّا ، وعلى الطبيعة ، من سن التاسعة وإباحة الزواج المشاعى (وهو أن يتزوج جماعة من الرجال بجماعة من النساء ويتبادلون الزوجات فيما بينهم) .. وإباحة زواج الرجل الشاذ بالرجل الشاذ وزواج المرأة الشاذة بالمرأة الشاذة .. والنظر إلى الخيانة الزوجية على أنها الأمر العادى والطبيعى والمألوف .. ودستور الحزب يهدف إلى جعل حبوب منع الحمل والإجهاض حقوقاً مشروعة توضع فى بطاقة التموين . وتوزع مع السكر والزيت والشاى . وأن تكون المخدرات المثيرة للذة شأنها شأن الخبز اليومى .. والحل السياسى لأزمة العالم فى نظر الحزب هى « الحب بدل الحرب » .. فتزحف الشعوب بعضها على بعض ليلتقى رجال شعب بنساء

يد الله ..

هل فكرت مرة فى نفسك ؟

وفى جسمك وكيف يعمل ؟

إن علوم التشريح والفسيولوجيا فتحت أعيننا على عجائب ومدهشات يقف أمامها العقل مذهولا .

نعلم الآن بالحساب والأرقام أن الرئتين فيهما من وسائل تنقية الدم وتهويته سبعة أضعاف الحاجة . أى أن الله وهبنا منذ الميلاد سبعة أضعاف مانحتاج إليه من النسيج التنفسى

وبالمثل فى الكليتين احتياطى فائض عن الحاجة سبة أضعاف اللازم لحفظ الحياة .

ونجد هذا الكرم والسخاء أيضًا فى نسيج مثل الكبد وعضلات القلب وكرات الدم الحمراء وكراته البيضاء ..

ومن الحيوانات المنوية تقذف ، فى المرة الواحدة أكثر من مائة مليون

حيوان منوى . أى مايكفى لإنجاب شعب كامل . . . ومن هذه المائة مليونًا ينتخب واحد هو أقواها . وهو الذى يصل إلى مبيض الأنثى قبل زملائه . فيكون تلقيح البويضة وإنجاب الوليد من نصيبه .

هنا شيء أكثر من السخاء والكرم .

هنا يد الخالق وحكمته ومحبته مبسوطة على آخرها .

ويقول لنا التشريح أيضًا إن العصب البصرى فيه أكثر من مليون خط عصبى تتشابك كلها لتصنع شبكية هى قاع العين حيث تقع الصورة ويتم التقاطها فى دقة فائقة . وحيث نرى فى العتمة . وأحيانًا فى الظلام ، ونميز بين درجات اللون الواحد وبين أخلاطه مايذهل .

أمّا قدرة الأذن على التمييز بين درجات الصوت ونوعياته فمعجزة تفوق معجزة الإبصار . فالأم قد تعجز عن تبين وجه طفلها الضائع فى الزحام ولكنها تستطيع أن تميز صوت بكائه من ألف صوت .

بل إن الأذن تستطيع أن ترسم صورة كاملة لشخصية إنسان من صوته ونبرته ولهجته .

بل هى تستطيع أن تسمع الغيب وتصغى إلى الهواتف التى تعبر إليها من عالم المجهول .

وقد ألقى الأمر إلى الأنبياء سمعًا كما نعرف .

فإذا وصلنا إلى المخ فنحن أمام خارقة الخوارق . . . فهاهنا مجمع خطوط عصبية أشبه بسويتش هائل يلتقى فيه أكثر من أربعين ألف مليون خط عصبى كلها تعمل معًا ، وفى وقت واحد ، فى تلقى الرسائل وتحليلها

والرد عليها .

فى كل لحظة يصل إلى المخ شلال من الإحساسات من الجلد ، والأحشاء ، والعين ، والأذن ، والأنف ، واللسان ، والعضلات ، والغدد ، ويخرج من المخ فى ذات اللحظة طوفان من ردود الفعل فى كابلات عصبية توصل كل رسالة إلى مكانها .

جميع العضلات تبعث إلى المخ فى ذات اللحظة تفاصيل غاية فى الدقة ، عما يطرأ عليها من توتر وانقباض وارتخاء . وعلى المخ أن يرد فى ذات اللحظة بالتعليمات المطلوبة للحصول على أى وضع نريده . وهكذا نستطيع أن نقف على رأسنا ، أو نمشى على أيدينا ، أو نحفظ توازننا على قدم واحدة ، دون أن نقع .

وهكذا نجد أن عملية حفظ التوازن هى عملية معقدة من آلاف الضوابط . كل عضلة لها مخ إلكترونى صغير ومركز تنظيم فى الدماغ . والمراكز العديدة لها مجمع ترابط ينظمها فى الدماغ . والمراكز العديدة لها مجمع ترابط ينظمها جميعاً ، ثم يخضع كل هذا للإرادة والاختيار .

فإذا عرفنا أن فوق المخ شيئاً أعظم هو العقل . وأن المخ ليس إلا الجانب الآلى من عملية شديدة الغموض ، وأن العقل هو السيد ... هو الذى يأمر . وهو الذى يتكلم من وراء هذا السويتش العجيب فنحن فى النهاية أمام معجزة أكبر .

ذلك العقل الذى حاربنا به الميكروب . وروضنا الأسد . واصطدنا الذئب ، وأخضعنا وحوش الغاب ..

ذلك العقل الذى بنينا به الأهرام والسدود ، ونقلنا الجبال من مكانها ، وهدمنا إمبراطوريات وأقمنا إمبراطوريات ... وأخيراً صعدنا إلى القمر ، وسبحنا إلى النجوم .

ها نحن أولاء كلما اكتشفنا آية من آيات كرم الخالق قادنا تأمل هذا الكرم إلى كرم أكبر وعطاء أكبر .

ومن وراء العقل يقودنا التأمل إلى الروح ، سر الأسرار ، وذروة العطاء الرحمانى .

وهنا يعجز القلم ويسكت الفكر حياءً ، أمام نعمة لا يملك الخيال أن يحيط بها . إذ يصفها الخالق بأنها فيض منه فيقول عن خلق آدم (فإذا نفختُ فيه من روحى فقعوا له ساجدين) . فهى نور من نوره ... تعالى وتبارك فى سماواته ، الذى خلقنا باسمه الكريم الوهاب ، وتناهت عطاياه فما تناهت ، وما استطاع قلم أن يحيط بكرمه أو يحصر أفعاله .

بيروت ذات الستمائة ألف وجه

بيروت ، المرأة اللعوب ، مستحيل أن تصدر عليها حكماً شاملاً .

إنها يمكن أن تهبط بك السلالم الحلزونية إلى علب الليل وحانات الستريب تيز ، ولكنها أيضاً تصعد بك قمم فيروز والرحبانى .

وقد تتنافس فى بيروت مجلتان على الصور العارية فكرة عادية لرفع التوزيع .

ولكن بيروت تفاجئك بنفس الوقت بمجلة أخرى على غلافها صورة ملونة لرجل عجوز وقور مثل توفيق الحكيم (فكرة لا يمكن أن تصدر عن رغبة فى رفع التوزيع أو اجتذاب مراهق جديد إلى جمهرة القراء) .

وفى بيروت شوشو يمثل على طريقة ما قبل الكسار . وفرقة أبو دبس تمثل على طريقة ما بعد الكوميدى فرنسيز .

وفى بيروت تاجر يبيعك بضاعة تالفة بسعر مضاعف .

وفى بيروت « أبو الشام » الطيب القلب الوديع الشهم الذى مازال يلبس

السروال والزعبوط ، ويزرع الضيعة ، ويبيعك التفاح الفاخر بسعر التراب .

وفى بيروت من يحارب العروبة علناً ويتكلم الفرنسية ويقول إن لبنان يتبع خريطة أوربا .

وفى بيروت من يستشهد فى سبيل عروبته وعروبة لبنان .

وفى بيروت من يضحك إذا كلمته عن العدالة الاجتماعية ويعتبرها نكتة ظريفة .

وفى بيروت شبيبة جديدة من طلبة الجامعات ، يطالبون بالتنمية والتصنيع ، وزراعة الأراضى المهملة ، وتشغيل الأيدى العاطلة ، وتوجيه رأس المال إلى المشاريع الاجتماعية النافعة بدلا من تركه ليبنى العمارات على أرصفة الشانزليزيه فى باريس ، ويتسرب فى بالوعة المغامرين والمقامرين والمستغلين .

وفى بيروت من تتقدم للمنتج والمخرج وصاحب الجريدة لتتدرب فى شققهم الخاصة على أول دروس التمثيل والشهرة وصور الغلاف والقبلات المحمومة .

وفى بيروت العذراء التى يحمر وجهها خجلا وتسحب يدها إذا عابثت أناملك وكأنما لدغها ثعبان .

وفى بيروت الزوج الذى يغمض عينه عن زوجته التى تدور فى حلبة الرقص مع صديق ، الخد ع الخد ، والساق لصق الساق ، والشفاه تهمس وتلثم أطراف الآذان

وفى بيروت الأخ الذى يقتل أخته غسلا للعار ، لأنه ضبطها تبتسم

لجاره من الشباك ، وقد يكون الاثنان من سكان حى واحد لاتزيد المسافة بينهما على محطة أتوبيس .

ولكن بين كل واحد وآخر فى بيروت توجد عصور وأجيال وحضارات ، وكأنهما من سكان قارتين مختلفتين وليسا من سكان شقتين متلاصقتين فى طابق واحد .

فى بيروت تجد عادات البداوة وأخلاق السواحل ، وبراءة سكان الجبال وانحلال سكان المدن ، وغلظة الريف ورقة الحضر ، وقسوة الرأسمالية وأحلام المثالية .

وفى بيروت تسمع الشعر والهذر .

وترى الطربوش والمينى جوب .

وترى زبون الأسطوانات الذى يبحث عن أسطوانات الخنافس وإلى جواره من يبحث عن أسطوانات الشيخ رفعت .

وكل شىء صواب فى بيروت وكل شىء خطأ .

وكل شىء ممكن وكل شىء مستحيل .

وأنت حر . وليست عندك ذرة حرية فى نفس الوقت (وبدون ليرات أنت مسجون فى فندقك . وإذا لم يكن معك أجر الفندق فأنت مسجون على الرصيف) .

وحتى رصيف الهورس شو يحتاج إلى ليرات .

وتسألنى بعد ذلك حكمى على بيروت .

لى عليها ستمائة ألف حكم بعدد الستمائة ألف ساكن الذين يسكنونها ، لكل واحد حكم خاص به .

فكل واحد مدينة فى ذاته ، ولو أن اسم كل هذه المدن بيروت . بيروت الغانية ذات الستمائة ألف وجه .

السلطان الحقيقى

قل لى فيم تفكر أقل لك من أنت .

هل أنت مشغول بجمع المال وامتلاك العقارات وتكديس الأسهم والسندات ؟ أم مشغول بالتسلق على المناصب وجمع السلطات والتحرك فى موكب من الخدم والحشم والسكرتيرات ؟ أم أن كل همك الحريم وموائد المتع ولذات الحواس وكل غايتك أن تكون لك القوة والسطوة والغنى والمسرات . . .

إذا كان هذا همك فأنت مملوك وعبد .

مملوك لأطماعك وشهواتك ، وعبد لرغباتك التى لا شبع لها ولا نهاية .

فالمعنى الوحيد للسيادة هو أن تكون سيداً على نفسك أولا قبل أن تحاول أن تسود غيرك . أن تكون ملكاً على مملكة نفسك . أن تتحرر من أغلال طمعك وتقبض على زمام شهوتك .

والقابض على زمام شهوته ، المتحرر من طمعه ونزواته وأهوائه لا يكون

خياله مستعمرة يحتلها الحريم والكأس والطاس ، والفدادين والأطيان والعمارات ، والمناصب والسكرتيرات .

الإنسان الحقيقى لا يفكر فى الدنايا التى يرتمى عليها طغمة الناس .

وهو لا يمكن أن يصبح سيداً بأن يكون مملوكاً ، ولا يبلغ سيادة عن طريق عبودية . ولا ينحنى كما ينحنى الدهماء ويسيل لعابه أمام لقمة أو ساق عريان أو منصب شاغر . فهذه سكة النازل لا سكة الطالع .

وهؤلاء سكان البدروم فى عمارة الإنسانية لا سكان الأدوار العليا .

وهم سكان البدروم حتى ولو كانت أسماؤهم بشوات وبكوات . حتى ولو كانت ألقابهم ، أصحاب العزة والسعادة .

فالعزة الحقيقية هى عزة النفس عن التدنى والطلب .

وممكن أن تكون رجلا بسيطاً ، لا بك ، ولا باشا . ولا صاحب شأن ، ولكن مع ذلك سيداً حقيقاً ، لك عزة الملوك وجلال السلاطين . لأنك استطعت أن تسود مملكة نفسك .

وساعتها سوف يعطيك الله السلطان على الناس . ويمنحك صولجان المحبة على كل القلوب .

انظر إلى غاندى العريان . البسيط .. كم بلغ سلطانه ؟

كان يهدد بالصوم فيجتمع مجلس العموم البريطانى من الخوف وكأن قنبلة زمنية ستقع على لندن . وكان يجمع أربعمائة مليون هندى على كلمة يقولها . وكأنها السحر .

هذا هو السلطان الحقيقى .

هذا هو الملك الحقيقى الذى لا يزول .

الحريم والقصور والكنوز والثروات والعمارات مصيرها إلى زوال .

لن تأخذها معك إلى تابوتك . سوف تنتقل إلى الورثة . ثم إلى ورثة آخرين ، ثم إلى ورثة آخرين ، ثم تصبح خرائب مع الزمن .

أما محبة الملايين فسوف تصاحبك فى تابوتك وتظل علماً على اسمك مدى الدهر . كما تفوح الذكرى عطرة تضوع بالشذا كلما جاء اسم غاندى على الألسن .

الغنى الحقيقى أن تستغنى .

والملكية الحقيقية ألا يملكك أحد ، وألا تستولى عليك رغبة ، وألا تسوقك نزوة .

والسلطنة الحقيقية أن تكسب قيراط محبة فى دولة القلوب كل يوم .

تذكر أن الذين يملكون الأرض تملكهم الأرض . والذين يملكون الملايين ، تسخرهم الملايين ، ثم تجعل منهم عبيداً لتكثيرها ، ثم تقتلهم بالضغط والذبحة والقلق . ثم لا يأخذون معهم مليماً .

صدقنى هؤلاء هم الفقراء حقًا ..

لغز الرقم ٧

اليهود يقدسون اليوم السابع من الأسبوع (السبت) ويجعلون منه يوم راحة ... والسنة السابعة ويسمونها سنة السبت .. وكذلك ٧×٧ أى العامُ التاسع والأربعون ويسمونه عام العيد .

وتقول لنا التوراة إن الله خلق العالم فى ستة أيام ثم استراح فى اليوم السابع .

وفى الإنجيل يقول لنا يوحنا اللاهوتى فى سفر الرؤيا إن الله يوم القيامة يفتح كتاب الأقدار ، ويفض الأختام السبعة ، فينفخ سبعة من الملائكة فى سبعة أبواق وتحدث سبع كوارث تنتهى بها الدنيا .

ويحدثنا القرآن عن سبع سماوات . وسبع أبواب للجحيم ، وسبع ليالٍ عجاف مرت بها مصر أيام نبوة يوسف ، وسبع ليالٍ سخرت فيها الرياح المهلكة على قوم عاد ، وسبعين رجلا جمعهم موسى لميقاته مع الله . وسلسلة فى جهنم طولها سبعون ذراعاً ، ويقول للنبى الكريم : (ولقد أتيناك سبعاً من

المثانى والقرآن العظيم) .

ويقول إن الله خلق العالم فى ستة أيام ثم استوى على العرش فى اليوم السابع .

فإذا وضعنا الكتب المقدسة جانباً وجئنا إلى العلم فإنا نجده يقول لنا ماهو أعجب . فالنور يتألف من سبعة ألوان هى ألوان الطيف ، من الأحمر إلى البنفسجى . ثم يأتى بعد ذلك سبعة ألوان غير منظورة من تحت الأحمر إلى فوق البنفسجى ، وهكذا فى متتاليات سباعية .

والموسيقى يتألف سلمها من سبع نغمات : صول ، لا ، سى ، دو ، رى ، مى ، فا ... ثم يأتى النغمة الثامنة فتكون جواباً للأولى ، ويعود فيرتفع بنا السلم سبع نغمات أخرى ، وهكذا سبعات سبعات .

وفى ذرة الأيدروجين داخل قلب الشمس يقفز الإلكترون خارجاً من الذرة فى سبع قفزات لتكون له سبعة مدارات تقابل سبعة مستويات للطاقة ، فى كل مستوى يبث حزمة من الطاقة ، هى طيف من أطياف الضوء السبعة .

والجنين فى بطن أمه لا يكتمل نموه إلا فى الشهر السابع ، وإذا ولد قبل ذلك لا يعيش .

وقد توارثنا الاحتفال « بسبوع » المولود .

ثم نحن قسمنا أيامنا إلى أسابيع ، نجد ذلك فى جميع الأمم دون أن يكون بينها اتفاق .

ونحن نجد رقم « ٧ » رقماً فريداً لا يقبل القسمة ، وليس له جذر

تربيعى ، ولا يقبل التحليل الحسابى . فهو فى ذاته وحدة حسابية

ونجده مستعملا فى جميع طلاسم السحر والأحجبة والتمائم وفى التسابيح ، وفى قراءة الأوراد .

ونجد للإنسان سبع حواس . حاسة السمع ، والبصر ، والشم ، واللمس ، والذوق ، وحاسة إدراك الزمن ، وحاسة إدراك البعد فى المكان .

ونجد فقرات الرقبة سبعاً . هى كذلك فى القنفذ وهى كذلك فى الزرافة ، وهى كذلك فى الإنسان والحوت والخفاش ، وبالرغم من تفاوت طول الرقبة بين أقصى الطول فى الزرافة وأدنى القصر فى القنفذ

هل كل هذه مصادفات .

وإذا صحت مصادفة واحدة فكيف يجوز أن تجتمع كل هذه المصادفات على نفس الرقم .

يجب أن نعترف أنه رقم له دلالة . وأنه رقم مهم وجوهرى فى بناء هيكل الكون وفى تكوين الإنسان .

وأنه لغز يثير التفكير والتأمل .

فرويد الرجل المريض

ماأكثر مايبدو سطح البحر هادئاً ناعماً كبساط من حرير يوحي بالسلام والاستقرار والأمان .

وما أكثر مايخفى ذلك المظهر الهادئ الخادع صراع الموت والحياة وحشرجات الاحتضار فى داخله ، حيث فى العمق تسرح الحيتان وأسماك القرش والثعابين والأخطبوطات ... يأكل بعضها بعضاً ، ويطارد بعضها بعضاً فى سعار لا ينتهى .

وكذلك يبدو وجهك فى المرآة هادئاً وديعاً صافياً ، وفى داخل نفسك تصطرع الغيلان ، وتشتعل الرغبات ، وتتأجج الغرائز وتضطرم الأحقاد .

ولكن أنت أيضاً كالبحر إذا تجاوزت الأعماق التى تصطرع فيها الحيتان وصلت إلى سكون القاع حيث الأصداف واللآلئ والمرجان . وكذلك نفسك إذا تجاوزت فيها منطقة الغرائز وصلت إلى منطقة الروح ، حيث ترفرف السكينة ويتلألأ ضياء الحكمة ، وتتفجر المحبة صافية من بين يدى

الخالق الرحيمتين .

ويقول لنا الخالق إنه قريب ... قريب جدًا . أقرب إلينا من حبل الوريد . أقرب إلينا من الدم فى شراييننا . فهو على عتبة روح كل منا .

وينكر فرويد هذا الكلام عن الروح .

وينكر أن فى النفس منطقة روحية تعشش فيها السكينة وتنشر الحكمة والمحبة أنوارها ... وهو لا يعترف إلا بالأعماق السوداء الحيوانية التى تصطرع فيها غيلان الغرائز ويقبض فيه سلطان الشهوة على كل شىء .

والذى يتابع مايجرى فى أوساط علم النفس فى أوربا والغرب يجد أن نجم فرويد قد غرب تماماً من أفق علم النفس ، ولم يعد أحد يتكلم عن نظريته البائدة فى الحافز الجنسى .

ومع ذلك ما زلنا نجد لفرويد نفس الهالة القديمة فى نفوس شبابنا ، ربما لنقص أو كسل فى المطالعة والمتابعة ، وربما لأن نظريته فى الحوافز الجنسية تجد استجابة عند الشباب المراهق أكثر من النظريات الأخرى الأكثر عمقاً وتجريداً .

ولا شك أن القول بأن الإنسان يدور فى فلك حول غريزته الجنسية هو قول مريح جدًا بالنسبة لشاب فى مرحلة المراهقة ، كل هرموناته وحواسه تدفعه دفعاً إلى التفكير فى المنطقة التناسلية من جسده .

ولكن هذا الشخص ذاته سوف يغير رأيه فى فرويد وفى نفسه حينما يبلغ أوج رجولته وتتسع اهتماماته وتنطلق عواطفه وأفكاره خارج إسار غرائزه ، لتحلق فى آفاق أوسع وأرحب . ويجد نفسه يفكر ويتصرف بطريقة غير

جنسية فيقاتل ويموت من أجل مبدأ ، ولا يفعل ذلك أبداً من أجل امرأة .

ويحلم ويقلق من أجل تلك الأفكار والمبادئ ، ولا يحلم أبداً بالأثداء والنهود والحلمات .

وأكبر مطعن على صحة النظرية الفرويدية هى الطريقة التى استنبطها فرويد ، فهو باعترافه قد جمعها من أفواه مريضات الهستيريا المترددات على عيادته ومن واقع دفتر أحوال حفنة قليلة من ضحايا القلق والأعصاب والماليخوليا والنورستانيا .

ومن هذه الحفنة القليلة المريضة خرج علينا باستدلالات حاول أن يعممها على الأسوياء الأصحاء ويجعل منها منهج سلوك الإنسانية كلها . وهو أسلوب غير علمى .

والقول بأنه كلما شاهد أحدنا فى الحلم حفرة فإنه يعنى بذلك العضو التناسلى لامرأة ، وكلما أمسك بقلم فى الحلم فهو إنما يمسك بعضوه التناسلى ، لمجرد أن هذه التفسيرات انطبقت على مريضة بالهستيريا . وهذه هى السذاجة بعينها .

والقول بأن الطيران فى الحلم رمز لمزاولة العملية الجنسية لمجرد تداعى هذه الصورة فى ذهن مريضة بالماليخوليا .. هى سخافة أخرى .

ولماذا لا يكون الطيران رمزًا للتطلع إلى الأسمى والأعلى ؟ لماذا لا يكون رمزًا للتحرر من قيد الجسد ؟ لماذا لا يكون رغبة فى التحليق بالفعل كما يتداعى فى أذهاننا نحن الأصحاء .

وفرويد يمضى لأكثر من ذلك فيقول إن هواية جمع طوابع البريد ماهى

الآخر فى مؤتمرات للذة . بدلا من زحف الجيوش للحرب والقتل .

ومجلة الهر يواخيم دريسن تبيع مليون نسخة .

وهناك ثلاثة آلاف ألمانى وألمانية يدفع كل واحد منهم عشرة ماركات اشتراكاً شهريًّا ورسم ولاء ، وانضمام لهذا الحزب .

وسكرتيرة الهر يواخيم فتاة جميلة تجلس فى المكتب عارية . وتستقبل الزوار عارية على الدوام .

وحينما أقيمت على المجلة قضية دعارة ذهب الهر يواخيم إلى المحكمة محمولا على أكتاف ست فتيات عاريات الصدور .

وإذا تركنا الهر يواخيم وذهبنا إلى مهرجان كان السينمائى الأخير فإننا سوف نجد الأخبار التى خرجت من المهرجان تقول إن هناك موجة من الأفلام الجنسية الإباحية تغرق كل شىء .

فى أحد الأفلام التى عرضت خارج المسابقة يرقص الممثلون عراة . ويقومون بحركات جنسية خليعة . ثم نرى البطلة ترقد عارية فى مغارة . وأمامها على مكان يشبه المذبح يُقتل خنزير وتنتزع أحشاؤه لتلقى على جسدها . ثم نرى الممثلين يتجمعون حول المذبح ويبولون .

وفى فيلم آخر نرى امرأة تصعد إلى المترو لتأخذ مكانها فى مواجهة رجل .. ثم نراها تحدق فى الرجل وتسرح بخيالها فتتصور نفسها فى أحضانه وتمر ربع ساعة نرى خيالها يصور لها نفسها عارية فى جميع الأوضاع الممكنة .. ثم يقف المترو فى محطة فتنزل المرأة ويتبعها الرجل وقد لاحظ أنها كانت طول الوقت تحدق فيه .. يغازلها .. تنظر إليه بقسوة .. ثم نفاجأ بأنها

تقف وتشكوه لرجل البوليس فيقبض عليه .

ثم عشرات الأفلام تصور اللواط والسحاق .. وتعرض قصص نساء يمارسن الجنس مع حيوانات .

وفى فيلم « ألغاز الجسد » نجد عملاق السينما اليوغوسلافية « ماكافيجيف » يعرض لنا فيلماً سياسيًّا يقول فيه إن الكبت الجنسى هو المسئول عن الفاشية ، والنازية ، وعن القهر السياسى ، والعنف ، وعن الشخصيات السادية أمثال هتلر .. وإن حياة بلا ممنوعات هى الحل الوحيد لتحقيق السلام .

وبرغم هذه الموجة التجارية من التسول الجنسى الهابط فقد لوحظ أن مبيعات هذا اللون من الأفلام الإباحية قد انخفض بمقدار ٤٥ ٪ عمّا سجله الإنتاج نفسه فى العام السابق .

واتجاه السينما إلى العرى والجنس ظاهرة ملحوظة ومطّردة منذ سنوات .

والمنتجون يتحايلون فى إخفاء هذا الطابع الجنسى داخل غلالة من الأفكار والقيم .. فنجد فيلماً مثل « هيروشيما حبيبى » يدعو إلى السلام ويهاجم الحرب . وكل الفيلم يدور على شكل حوار بين امرأة عارية ورجل عار فى الفراش .

والمتفرج له الحق أن يسأل :

أما كان يمكن أن ندعو إلى السلام ونهاجم الحروب والقنابل الذرية كما

إلا تنفيساً باطنياً لرغبة طفلية هى هواية الطفل لقبض الشرج ليحتفظ بالبراز داخله تلذذاً واستمتاعاً .

وليست طوابع البريد إلا البديل الرمزى للبراز ، وجمع الطوابع هى اللعبة الجديدة التى يزوالها العقل الباطن بدلا عن قبض الشرج .

وسخافة الاستنتاج وسخافة التعميم واضحة .

ونعرف كيف وصف فرويد تلذذ الرضيع بحلمة الثدى بأنه تلذذ جنسى ، مع أن هذا النوع من التلذذ يستحيل الشعور به إلا بعد البلوغ . وهى حقيقة فسيولوجية أولية .

ولكن فرويد لم يبن نظريته على الحقائق ، وإنما بناها على الاعتساف والتخمين .

وإلى القراء من هواة فرويد ممن صدقوا معه أن الهستيريا والجنون والعصاب أسبابها الكبت الجنسى أقول : لماذا فى بلد مثل السويد حيث لا كبت جنسى ، ولا وازع دينى ، وحيث المشكلة بأسرها محلولة ، والمتعة الجنسية مباحة متاحة يمارسها الكل بلا حرج . لماذا تقول لنا الإحصائيات الرسمية إنه فى ذلك البلد السعيد نجد أعلى نسبة للجنون والانتحار فى العالم .

وأين كلام فرويد من كلام الإحصائيات الدامغة .

إن إصرار فرويد على رد كل نشاط إلى أصل جنسى هو فى ذاته شهادة على تعسفه . الفن فى نظره تَسامٍ بالطاقة الجنسية ، وتغزل فى الأنثى بالشعر والموسيقى . حتى الدين فى نظرة عبارة عن اعتذار للأب (الذى يرغب العقل الباطن فى قتله والخلاص منه للانفراد بعشق الأم) .. ومن ثم يكون الدين

اعتذارًا للأب الأرضى ، بتقديم فروض العبادة لأب بديل فى السماء .

كل ماهو مستطيل فى الحلم فهو عضو الرجل

وكل ماهو مستدير فهو عضو الأنثى .

وكل حركة فى الحلم هى رمز للعملية الجنسية . الجرى ، المشى ، التسلق ، السباحة ، ركوب البسكليت ، القفز ، الطيران .. كلها رموز للعملية الجنسية .

هذا التعميم والتبسيط الساذج لا يمكن أن يكون مقبولا من عقل علمى ، ولا يمكن أن يقول به إلا عقل مريض .

وهو رد الفعل الطبيعى من العقلية اليهودية المضطهدة فى محاولتها لإلقاء القاذورات على وجه الإنسانية كلها ، وتصوير الدنيا فى صورة جبلاية قرود .

لقد كان فرويد مريضاً ، شأنه شأن مرضاه تماماً .

والقصة التى رواها زملاؤه عن علاقته بزوجته ، وكيف أنه لم يكن يقربها ، وكان يعيش معها فى حالة تطهر مسيحى رهبانى تؤكد ذلك .

أما كلام الفرويديين المتحمسين عن نجاح التحليل الفرويدى فى علاج المرضى فإنه لا يقدم حجة . فالتحليل بأسلوب إدلر نجح فى علاج نفس المرضى . والتحليل بأسلوب « يونج » نجح فى علاج نفس المرضى . وهى نكتة أشبه بما كانوا يقولونه لنا فى كلية الطب عن مرض الإنفلونزا الذى يشفى بالأدوية فى أسبوع ، ويشفى بدون أدوية فى سبعة أيام .

وسر النكتة أن مريض النفس يشفى بمجرد الإفضاء والإفشاء والتعاطف الحميم مع أى إنسان على أى مذهب ، وعلى أى منهج . لأن سر الشفاء هو

فى مجرد الإحساس بالصداقة والثقة والتعارف الحميم والاحترام الذى يفتقده المريض فى بيته .

ولا دخل للهذيان الفرويدى فى الشفاء .

وللذين يتصورون مع فرويد أن المشاعر الدينية مصدرها الكبت نقول . إن الشعور الدينى لم ينتظر الكبت ليولد . وإنه ولد منذ حياة الغابة ، ومنذ المشاعية البدائية التى لم تكن فيها حرمات ولم يكن فيها كبت . لأنه إحساس الفطرة بأن هناك خالقًا وصانعًا وموجهًا لكل شىء .

والفطرة كانت دائمًا المؤشر الذى لا يكذب ، والذى كان يشير إلى الحقيقة بأصبع ثابتة أحيانًا ، مرتجفة أحيانًا .

قد تهتز اليد التى تشير فيختلط على العقل فكرة الدين بالأسطورة ، والحقيقة بالخرافة ، فيعبد الشمس وينسى خالقها ، ويعبد الرمز وينسى المرموز له . ولكنه يصل فى النهاية إلى الطريق السليم بعد رحلة البحث والتخبط ، ويضع يده على الحق الذى لا ريب فيه .

والطب يبدأ على صورة تعاويذ وأساطير .

وتاريخ الطب القديم هو الخرافة بعينها .

ومع ذلك لم يقل أحد بأن علينا أن نرفض الطب الحديث لمجرد أنه بدأ على تلك الصورة البدائية .

وبالمثل لا يمكن أحد أن يرفض الدين لمجرد أنه خالطته الأساطير والتخريف .

إن الحقيقة لا يمكن أن تكتشف دفعة واحدة . وإنما خطوة خطوة ، تستصفى من الأساطير والألغاز والأحاجى .

وإبراهيم النبى بدأ بالاعتقاد أن القمر هو الله ، فلما غرب قال بل الشمس هى الله فلما أفلت قال إنى لا أحب الآفلين .. لا يمكن أن تكون كل هذه الظواهر التى تأفل هى الله ، بل هى مجرد ظواهر مخلوقة . والله الحق هو خالقها جميعًا .

ولقد مر بنفس مراحل اكتشاف الحقيقة بادئًا بالوثنية حتى انتهى إلى التوحيد .

وهكذا نرى أن تاريخ الأديان بكل ماخالطه من أساطير لا يمكن أن يكون مطعنًا على الدين الحق ، وإنما هو رحلة العقل فى مسراه ومعراجه نحو إدراك الحقيقة . وهى رحلة شائكة يتخبط فيها العقل ويتوه الوجدان وتدمى الأقدام ويضل المسافر ويصطدم بالعديد من الأزقة المسدودة قبل أن يهتدى إلى الطريق المستقيم ودور الأنبياء أنهم اختصروا لنا الطريق وقدموا لنا الحقيقة كلها دفعة واحدة كما جاءتهم وحيًا وهذا هو الفضل الإلهى الذى حفظنا من الضياع فى شعاب عقلنا المضل .

وما كلام فرويد إلا زقاق من تلك الأزقة المسدودة التى يتوه فيها العقل ويضل الوجدان ، وينتكس الأسوياء عائدين إلى مراهقتهم الأولى .

حينما تعجز الكلمات

الذى جرب أن يصطحب طفله الصغير فى نزهة لاشك قد عرف هذه الحيرة التقليدية التى يقع فيها كل أب حينما يسأله ابنه عن الشجرة التى تقف على باب الحديقة . . ما هى ؟ . . فيقول الأب : هى شجرة . . فيسأل الطفل وما الشجرة ؟ فيقول الأب إنها نبات .

- وما النبات يا بابا ؟
- ما ينبت إلى فروع وأوراق وجذور .
- وما الجذور يا بابا ؟
- هى شىء كالأرجل للنبات .
- وما حاجة الشجرة إلى أرجل يا بابا ؟ وهل الشجرة تمشى ؟
- إنها تحتاج إلى الأرجل لتقف طول الوقت .
- ولماذا تقف الشجرة طول الوقت يا بابا ، لماذا لا تقعد وتنام مثلنا ؟
- هى تنام واقفة .

– وهل الشجرة صاحية الآن أو نائمة !

وبينما يفكر الأب فى مخرج من المأزق يفاجئه الطفل بسؤال آخر أكثر تعجيزًا :

– ولماذا سموا الشجرة شجرة يا بابا ؟

ويسقط فى يد الأب تماماً ولا يجد مفرًّا من أن ينهر الطفل بشدة ويأمره بأن يغلق فمه ولا يسبب له الصداع . ولكن بينه وبين نفسه يكون قد اكتشف أن طفله على صواب ، وأنه جاهل مثل طفله بحقيقة الشجرة ولا يعرف عنها إلا أنها شجرة . ولا يدرى لماذا سموها شجرة . ولا ما الشجرة فى ذاتها .

إنه من كثرة ما ترددت أمامه كلمة الشجرة ومن كثرة ما رددها هو نفسه فى عباراته خيل إليه أنها تعريف واضح مقنع ، وأنها تدل على مدلولها .

وما فعله الطفل هو أنه هتك ستار هذه الألفة فإذا بالأب يفيق على ذهول . وإذا بالكلمة مجرد اصطلاح . مجرد بطاقة . مجرد شيفرة . مجرد حروف . شأنها شأن نمرة نحاسية على صدر مسجون . . أطلقنا عليه المسجون نمرة ٨ .

لكن ما معنى المسجون نمرة ٨ ؟

لا معنى هناك .

إنه رقم شيفرى لا أكثر.

وبالمثل فلان الذى اسمه « منير » .

ما معنى « منير » ؟

إنه لا أكثر من اسم اصطلحنا على أنه لفلان .

ولكن لا أحد يعرف معنى « منير » وحقيقته وماهيته .

حتى « منير » لا يعرف شيئا عن حقيقة نفسه .

وبالمثل كل ما فى الدنيا من كلمات . هى مجرد اصطلاحات وحروف شفرية لا تختلف عن حروف س . ص . ك . أوج . م . ع . . فى الدلالة على مقصودها .

وهذه الحادثة البسيطة تكشف لنا إفلاس اللغة ودورها المحدود . فهى لا أكثر من واسطة شفرية اصطلاحية للتفاهم حول موضوعات العالم الخارجى مثل كوب وزجاجة ومائدة وكرسى وشجرة .

فإذا وصلنا إلى داخل الإنسان أو إلى ماهية الأشياء فإن اللغة تفلس تماماً ولا يعود لها دور .

وفى أعماق الروح لا تعود اللغة قادرة على وصف المكنون الروحى والتعبير عنه .

وكلنا جربنا حالات من الحب عجزت الكلمات عن وصفها .

ولحظات من الوجد الصوفى عجز فيها اللسان أمام ولوع القلب وتشوف الوجدان .

وعرفنا أوقاتًا كان الصمت فيها أبلغ من الكلام .

وفى داخل الروح مملكة المعنى .

لا حروف ولا كلمات . وإنما السر ، والمعنى ، والجوهر ، والمكنون .

ويبدو أننا بعد القيام من الموت وبعد أن نبعث أرواحًا سوف نتخاطب

بالمعانى والمشاعر مباشرة بدون وساطة الحروف .

وكما يقول الصوفية فى تسبيحاتهم عن الله : إنه السميع بلا سمع ، والبصير بلا بصر ، والمتكلم بلا كلام ، أى بلا حروف أى أنه يلقى المعنى فى النفس مباشرة

وهذا شأن عالم الروح فى جلاله .

وهذا شأن فرحة الروح الطيبة عند لقائها بربها .

ستكون فرحة بلا لسان وبلا كلمات لأنها أعظم من حجم الكلمات ، وأروع من كل اللغة .

العيال الذين ظنوا أنفسهم كبارًا

أحيانًا تراودنى الرغبة فى البكاء مثل طفل صغير يتيم تاهت عنه أمه فى الزحام . وأشعر فى تلك اللحظات أننا جميعًا أطفال . لا فرق كبير يذكر بيننا وبين أطفالنا فى علمنا ومعارفنا وأخلاقنا .

يخيل إلينا أننا اخترقنا السماوات بعلومنا . ولو فكرنا قليلا لوجدنا أننا مازلنا فى حروف أ . ب . ت . ث . . وأننا كأولادنا على عتبة واحدة من الحيرة والتساؤل والجهل .

يقول لك طفلك وهو يشاور على القمر : من أين جاءوا بهذا القمر يا أبى ؟

وتجاوب عليه بكلام كثير . وتتلو عليه نظريات وافتراضات خلاصتها أنه لا أحد يعرف الحقيقة . ولا حتى أينشتين نفسه .

ويسألك طفلك عن جده الذى مات أين ذهب منذ موته .

وعن أخيه الذى ولد أين كان قبل مولده .

فلا تعرف جوابًا .

فلا أحد يعرف ماذا قبل الميلاد ولا ماذا بعد الموت . ولا من أين . ولا إلى أين .

ويشاور لك على الكهرباء ويقول ما هذا ؟ فتقول الكهرباء .

ويسألك ما هى الكهرباء فلا تجد جوابًا .

ويسأل من أين أتت الكهرباء . .

فتحكى له حكاية طويلة عن ماكينات النور ووابور النور . وأنت لا تدرى ما النور . ولو سألت علماء الطبيعة كلهم ما وجدت فيهم واحدًا يستطيع أن يدلك على ماهية النور وكنهه ، ولا حتى نيوتن ، ولا أفوجادرو ، ولا فارادای .

وما أجهلنا على الدوام .

ابتكرنا علم النفس وكتبنا فيه المراجع ونحن لا ندرى ما هى النفس .

واخترعنا الساعات لنقيس الزمن ونحن لا نعرف ما هو الزمن .

وسكنا الأرض من ملايين السنين ومازلنا لا نعرف عنها إلا قشرتها .

ويجتمع شهود الحادثة الواحدة فيختلفون فى روايتها ويحكيها كل واحد بصورة . وهذا شأن الحادثة التى لم تمر عليها ساعة فما بال التاريخ الذى مر عليه ألوف السنين وكتبت فيه المجلدات . وكلها تخييل .

وما أبعدنا دائمًا عن الحقيقة .

وما أقل ما نعلم .

وما أقرب الفارق بيننا وبين أطفالنا فى علمنا ومعارفنا .

بل ما أقرب الفارق بيننا وبين أطفالنا فى أخلاقنا – نحن الأوصياء والمربين وكل منا يحتضن أملاكه كما يحتضن الطفل لعبته ولا يطيق أن تمسها يد منتفع .

وفينا البخيل والشَّرِه ، والأَكُول والطمّاع ، ومن يسيل لعابه على المليم .

والطفل يخطف والكبير يسرق .

والطفل يضرب والكبير يقتل .

والطفل يمد يده بالايذاء والكبير يمد عصاه وسكينه .

والطفل يرمى بحصاة . والكبير العظيم يرمى بقنبلة ذرية .

ألا يحق لى بعد ذلك أن أبكى على هذا العالم من العيال الذين ظنوا أنفسهم كبارًا ؟ !

عالم الغيب

أنت تصادف اليوم نوعًا من الناس تجد الواحد منهم يتأبط كتابًا ضخمًا بالإنجليزية أو الفرنسية ، ويبرُزُ من فه سيجار ضخم ينفث الدخان كمدخنة مصنع فى لانكشاير ، فإذا رفعت يدك بالتحية رد عليك باللاتينية وبلسان معووج يتكلم برطانة أوربية . . ومع الدخان المتصاعد والفتات المتناثر من عدة لغات يقول لك فى نبرة كلها انبعاج وخيلاء :

– هل قرأت ما يقوله جوستاف لوفافر فى الدوجماطيقية والفكر الاستاطيقى والتدهور الرومانطيقى والانحرافات السيكوباتية فى المجتمعات الثيوقراطية . . . فى ملحق مجلة « الميتافيزيقا » . . إنه مقال رائع (ويقلب شفتيه) .

مالنا نقف هكذا وسط الطريق . . . دعنى أدعوك على كأس فى الهورس شو . تعال . . . سيكون حديثًا ممتعًا على أكواب البيرة .

فإذا اعتذرت له بأنك صائم حملق فى دهشة كأنه يستمع إلى كلام

ديناصور منقرض . . وفغر فاه تماماً ثم قهقه ، بل انفجر ضاحكاً وكأنما ظفر بمعتوه هارب لتوه من مستشفى المجاذيب :

– تقول إنك صائم ؟

وعاد يقهقه هذه المرة فى إشفاق :

– وهل هناك من يصوم هذه الأيام . . . هل تعتقد حقاً فى هذه الـ . .

ثم أشاح بيده استخفافاً ، فالمسألة لا تستحق عنده أن يبحث لها عن اسم .

وهو يقصد طبعاً هذه الأديان . . والخرافات . . والأساطير .

– هل تصدق حقاً أنك سوف تموت ثم تُبعث وتصحو من قبرك وتُحاسب . . . وأن هناك إلهاً ؟

ثم راح يتلفت حوله متسائلاً :

– أين هو ؟

يقصد أين الله . وكأنه يبحث عن سائق تاكسى .

– أتصدق هذه الغيبيات ؟ أما زال هناك من يصدق هذه الغيبيات فى عصر النور والعلم ؟ أفق يا رجل من هذه الدروشة . تعال . . لتكن الدعوة على كأس ويسكى لا بيرة ، ولتكن معها شريحة لحم خنزير رائعة .

ويحمل عليك حملة شعواء بجميع اللغات لدرجة تفقدك التوازن وربما الثقة بالنفس ، فتعود لتتعلل فى خجل بأنك ممنوع من الأكل والشرب بسبب التهاب فى المعدة . ويسوق هو فى فلسفته :

– يا أخى نحن فى عصر العلم ، ولا يصح أن نستسلم لهذه الغيبيات ، ولا يصح أن نؤمن بشىء إلا إذا أمسكناه بحواسنا الخمس ، ورأيناه

بالميكروسكوب ، وشاهدناه بالتلسكوب ، ورصدناه بالرادار ، والتقطناه بالراديو . لا يصح الإيمان بغيب هذا أمر انتهى .

الغيب أمره انتهى ، وهو الآن شغلة السُّذَّج . . هى كلمات نسمعها الآن عادة من هؤلاء المثقفين .

ولمثل هؤلاء المثقفين من أصحاب السيجار والياقات العالية والرطانة الأوربية أقول فى هدوء :

– بل هذا العصر هو عصر الغيب . والعلم ذاته هو اعتراف بليغ بالغيب . وإلا فليقل لى واحد من هؤلاء العلماء . . ما هى الكهرباء ؟ إننا نتكلم عن الكهرباء ولا نعرف عنها إلا آثارها من حرارة وضوء ومغناطيسية وحركة . . أما الكهرباء ذاتها فهى غيب نتكلم عن الإلكترون ونقيم صناعات إلكترونية ولا نعرف ما هو الإلكترون . فهو غيب ونطلق الموجة اللاسلكية ونستقبلها ولا نعلم عن كنهها شيئاً . وهى بالنسبة لنا غيب . بل إن الجاذبية التى تمسك بالأرض والشمس والكواكب فى أفلاكها – وهى أولى البداهات – هى ذروة الغيب .

والعلم لا يعرف إلا كميات ومقادير وعلاقات ولكنه لا يعرف كنه ولا ماهية أى شىء .

أنت تعرف طولك وعرضك ووزنك ومواصفاتك . . لكن ذاتك . . نفسك . . روحك . . لا تعرف عنها شيئاً . إنها غيب . ومع ذلك هى أكثر واقعية من أى واقع .

وإذا كان الواحد منا لا يعرف ذاته فكيف يدعى المعرفة بذات الله ؟

ومن باب أولى كيف ينفيها ؟

وحينما يقول المفكر المادى . فى البدء كانت المادة . . فى البدء الأول قبل الإنسان والحيوان والنبات . . ألا يكون كلامه هو الجرأة بعينها على منطقة زمنية هى الغيب المطلق .

وحينما يقول : نضحى بالجيل الموجود فى سبيل جيل لم يولد بعد . . ألا يكون معنى كلامه التضحية بالواقع فى سبيل الغيب ؟

صدقونى نحن فى عصر الغيب بل للأسف نحن فى عصر الزّنى بالغيب ، والدعارة بالعلم على يد أصحاب السيجار والياقات العالية ، والرطانة الأوربية .

الذى شنق نفسه بسلك الكهرباء

روسيا وأمريكا التقتا وتصافحتا فى الفضاء ولم تستطيعا أن تلتقيا على الأرض .

الإنسان قطع ربع مليون ميل إلى القمر ولم يستطع أن يقطع بضع خطوات لينقذ جارًا له يموت فى فيتنام وكمبوديا والقدس .

المسافات بين قلوب الناس أصبحت أكبر من المسافات بين الكواكب ، وكل يوم يزداد الأخ عن أخيه تجافيًا وبُعدًا .

إنسان اليوم بدل أن يشغل نفسه بقتل الميكروبات أصبح يزرعها ويسمنها ويربيها ثم يصنع منها قنبلة ميكروبية ليلقيها على جاره .

ويجاوب عليه جاره بنفس أسلوبه ضاحكاً فى جنون .

– قنبلة ميكروبية . . وما جدواها ؟ لقد سبقتك لقد اكتشفت غازًا للشلل أرميه عليك فترقد مشلولا مثل صرصور قلبوه على ظهره ، فيصفق الآخر ويهلل كالمعتوه .

- . . قديمة . أنا عندى صواريخ مدارية تدور الآن فى فلك حولك وأستطيع بضغطة واحدة على زر أن أنزل عليك الموت كالمطر .

فيخرج الآخر لسانه ساخرًا .

- هذه لعبة فات أوانها ، فقد اخترعت صواريخ مضادة تصطاد صواريخك وتفجرها فى الهواء .

فيهتف الآخر :

- لن تستطيع ، فقد بنيت شبكة مضادة ضد الصواريخ المضادة .

فيقهقه صاحبنا :

- نسيت يا أبله أننى بنيت شبكة ضد الشبكة .

فيصرخ الأول :

- هاها . . أنت حمار تذكر أن عندى مخزونا من القنابل الذرية يكفى لتمزيق القارة التى تسكنها .

فيصرخ الثانى :

- فلتذكر أنت أيضاً أن عندى مخزوناً من القنابل الأيدروجينية يكفى لشطر الكرة الأرضية كلها نصفين .

وأعجب ما فى هذا الحوار الهستيرى أنه يجرى بالعلم والعقل ، والمخترعات والمبتكرات ، والأفخاخ الإلكترونية وأنه حوار ينزف ذهبًا ودولارات وماركات وروبلات وفرنكات بلا نهاية .

ورجل الشارع البسيط يمشى وسط هذه المظاهرة جائعاً عريانًا قليل الحيلة لا يعرف بماذا يطلع عليه الغد .

هل هذا عصر العلم ؟

أو عصر الجهل ؟

أو أنه جهل العلم ؟

الله يعطينا الكهرباء . . فماذا نفعل بهذه الكهرباء ؟ !

إننا لا نفكر كيف نحولها إلى نور .

ولكننا مشغولون طول الوقت فى المعامل والمختبرات نفكر كيف نحول هذه الطاقة الكهربائية إلى ظلام .

العالم يفكر فى أذكى طريقة يلف بها سلك الكهرباء على عنقه لينتحر .

إنه علم الجهل !

إنه العلم الأسود .

ومثله مثل السحر الأسود الذى كان يحول به سحرة فرعون العصى إلى ثعابين .

لأنه علم بلا دين !

وعقل بلا قلب !

لقد طالت مخالبنا فأصبحت مخالب نووية .

ونمت أنيابنا فأصبحت أنيابًا ذرية .

وظل قلبنا على حاله . قلب حيوان الغاب .

تطور الإنسان إلى تنين .

نشاء بدون أن تكون وسيلتنا إلى ذلك عملية جنسية بين رجل وامرأة فى الفراش ؟

ألا توجد وسيلة للسلام غير الدعارة ؟

أم أن إغراق العالم فى الدعارة والانحلال هو أمر مقصود .. وأن شركات الإنتاج (وأغلبها فى قبضة اليهود) قد عقدت فيما بينها حلفاً سرياً بالعمل على إفساد الشباب وهدمه وتضليله ، وأنها أخذت على عاتقها تنفيذ هذا البند المعروف فى بروتوكولات آل صهيون بإفساد العالم بالمخدرات والجنس والجريمة والمال تمهيداً للاستيلاء عليه ؟

إن الأمر خطير ويستحق منا وقفة تأمل .. فليس طبيعياً أن تدور كل الأفلام حول الجنس والمال والجريمة والعرى والمخدرات والهيبيز.. فمعنى محاصرة شبابنا بهذا النوع من المؤثرات على الدوام .. أن يقعوا هم فى النهاية فى شرك هذه المؤثرات .

واتفاق جميع الأفلام على الضرب على هذه الأوتار ليس مصادفة . وإنما هى علامة على تيار مقصود .

وإذا كانت مبيعات هذا اللون من الأفلام قد انخفضت داخل أوربا بمقدار ٤٥ ٪ عن السنة الماضية فإن معنى هذا أن هناك وعياً مضاداً لهذا التيار . وأن هناك حالة انتباه وغثيان ونفور من هذا اللون حتى داخل أوربا نفسها . وحتى من الشارى الذى يحكمه سوق العرض والطلب . فلا أقل من أن ينمو عندنا أيضاً هذا الوعى . وأن ننتبه لهذه السموم الوافدة علينا .. ونحن أكثر استهدافاً لهذه السموم من غيرنا .

ومقص الرقابة لايكفى ، وإنما علينا أن نحول دون دخول هذه الألوان من الأفلام أصلا مهما حملت من مسوغات ظاهرية . ومهما لفت بضاعتها السامة فى سيلوفان من القيم البراقة والمثاليات الكاذبة .

أما الزعم الذى يدعيه السينمائى اليوغوسلافى « ماكافيجيف » بأنه لن يكون هناك سلام فى العالم إلا عن طريق الإباحية الجنسية . فنرد عليه بأن الحيوانات تتصارع بالمخلب والناب مع أنها تعيش فى اباحية جنسية مطلقة .. ولو أنها كانت تمتلك وسائل الحرب الحديثة لاستخدمتها بدلا من المخلب والناب .

والسلام لا يصل إليه إلاّ إنسان استطاع أن يتحكم فى نفسه ويخضع نزواته .. هذا الإنسان هو وحده القادر على أن يتنازل لغيره طوعاً واختياراً ، ويحقق السلام بمعناه الايجابى .. السلام بمعنى المحبة والعطاء .

أمّا إنسان لا يستطيع أن يقاوم نزوة ، ولا يستطيع أن يكبح رغبة جنسية عارضة ويطلب منا أولا بأول أن نقضى له نزواته .. هذا الإنسان هو الذى يسرق ويقتل .. فما حوافز السرقة والقتل إلاّ نزوات مثلها مثل نزوة الجنس ، وتراث القيم والأخلاق لم يقم عبثاً .

إنه تراكم خبرات وتجارب عبر التاريخ .

والذى دعانا إلى ضبط شهواتنا ليس القسيس . ولا الواعظ . وإنما تراكم الخبرات والتجارب عبر ألوف السنين .. ملايين الأخطاء والمحن التى مرت بها الإنسانية واستولدت منها الحكمة والعبرة والضمير وأقامت صرح الحضارة .

والنهاية الآن مرهونة بمن يبدأ الحماقة . من يضغط على الزناد قبل الآخر !

أو من يفطن إلى الكارثة فيقود التطور إلى الاتجاه المضاد إلى اتجاه التسامى بقلب الإنسان وروحه . بدون اعتبار لقوة يديه ومتانة عضلاته .

حينما يصبح للمرأة ذيل

الذى ابتكر فكرة « الموضة » كان تاجرًا ذكيًّا جدًّا ، فهو الوحيد الذى استطاع أن يقنع المرأة بأن تلقى جميع فساتينها بدون سبب .

إذا كانت فساتينها طويلة أخرج لها موضة قصيرة .

وإذا كانت فساتينها قصيرة أخرج لها موضة طويلة .

وبهذه الخدعة اللطيفة يوشوش بها فى أذنها فى حنان . وكأن المصلحة هى مصلحتها – سيدتى . إن فستانك لا يتمشى مع الموضة .

استطاع أن يجعلها تلقى بفستانها الجديد الذى اشترته من شهر لمجرد أنه أزرق والموضة بنفسجى . أو أصفر والموضة أحمر . أو شوال والموضة ضيق أو ضيق والموضة واسع .

وألاعيب الموضة لا تنفد فى الضحك على ذقن المرأة وإثارة غرورها . مرة تكشف لها صدرها ، ومرة تكشف لها ظهرها . ومرة تشلح لها ساقها ، ومرة تبرز لها صدرها ومرة ترسم لها حلمة على السوتيان تخرق الفستان . ومرة

تكشف النهر المثير بين الثديين . . ومرة تكشف كتفاً وتغطى أخرى

من أيام الفراعنة لأيام العصور الوسطى للعصر الفيكتورى لعصرنا الذرى . . رحلة تثير العجب . . وتثير الضحك .

الفرعونية التى كانت تلبس الشوال الضيق وتقول لرجلها تغازله :

تعال انظر إلىّ وأنا خارجة من النهر .

وثوبى لاصق بجسدى يبرز كل تفاصيله .

إلى زوجة لويس الرابع عشر التى تضع على رأسها ريشة وتلبس لحافاً وبطانية ومشدات وأحزمة وزنها طن .

إلى امرأة الواحات التى تلبس الجرجر والخلاخيل والشخاشيخ وتضع فى أنفها حلقة .

إلى الهندية التى تلبس السارى

والمصرية التى تلتف بملاية

والعربية التى تلبس العباية

والباريسية التى تلبس البكينى

وبنت اليوم التى تلبس المينى جيب والماكسى جيب وتضع على عينيها نظارة ضخمة لها ضلفتين من الزجاج كأنها قمرة سفينة .

لعبة أشبه بلعبة المهرج .

ولا أستبعد أن تظهر موضة جديدة تصنع للمرأة ذيلا طويلاً فى مؤخرتها . . وأن تدور المشاجرات فى البيوت وتهدد الزوجة زوجها بطلب الطلاق لأنه لم يشتر لها ذيلا لائقاً مثل ذيول باقى صديقاتها . . وأنها

لا تستطيع أن تمشى فى الشارع بدون ذيل . . وأن كل الناس يشيرون عليها ويضحكون لأنها فلاحة متأخرة تمشى بدون ذيل .

إن كل شىء ممكن فى عالم الموضة .

وهيافة الستات وذكاء التجار يمكن أن يؤديا بنا لأى شىء .

والموضة الآن تحاول أن تستدرج الرجل . . بعد أن جعلت منه أنثى بقصات الشعر البناتى والقمصان المشجرة والبنطلونات المخزقة .

ويبدو أن التجار يخططون للضحك على ذقن العالم كله .

ولعلهم اليهود الأذكياء .

ولو قالوا إنها جزء من بروتوكولات آل صهيون لصدقت . . فهى شىء أشبه بالمؤامرة ، للسخرية من الإنسان واستنزاف وقته وثروته واهتمامه ، وإثارة شهوته وغريزته ليظل فى حال حيوانية باستمرار ، حتى يمكن ركوبه واستغلاله كما يركب الحمار ويُستغلُ وتُقضى به الحوائج .

وأكثر الموضات لا هدف لها سوى الاحتفاء بالغرائز وإثارة أشواقها وتجميل مكامن الفتنة المستورة ، ولفت النظر بالألوان الباهرة والخطوط المثيرة والعطور المشهية . . وهى دائماً مؤامرة على الحواس لإيقاعها فى حبال الغريزة .

ولكنى أغالى كثيراً إذا اتهمت اليهود وحدهم . . فهذا أمر قديم جداً قبل مجىء اليهود إلى الدنيا .

والتاجر المستغل غير ملوم وحده فى بناء هذا الصرح من سرك المجاذيب . . وإنما كل منا ملوم ، رجل وامرأة ، حينما يترك عنقه لتقوده

شهوته وغروره ، وليترك يد التاجر تدلك له ذلك الضعف لتستولى عليه وتستغله . فيخر كما يخر قط على الأرض يهر ملتذا من الأصابع التى تتحسسه . ويسلم حافظة نقوده لتنشل .

صدقونى إنه لأمر مخجل جدًا . ذلك الشىء الذى اسمه الموضة

بيت النمل

هل فكر أحدكم أن يدخل بيت النمل .

صدقونى أنها ستكون زيارة مثيرة . . أكثر إثارة من الصعود إلى الفضاء والتجول على القمر .

إن النمل حشرة صغيرة جدًا لا تزيد على مليمتر ومع ذلك فهى مهندسة معمارية عظيمة ، تبنى القلاع والحصون . والغرف والدهاليز والمخازن . وتهندس بدرومات كاملة تحت الأرض .

وهناك نوع من النمل يمارس الزراعة . فيزرع نبات عيش الغراب ، ويجلب له السماد من الأوراق المتعفنة . . ثم يحصده عند نضجه ويخزنه فى مخازنه .

وهناك نوع آخر من النمل . . كيميائى متخصص . . يمضغ الخشب ويحوله إلى نوع من الكرتون ، ثم يبنى من هذا الكرتون طرزًا هندسية معمارية عجيبة .

وهناك نوع ثالث من النمل الأفريقى يبنى بيوتًا تشبه المسلات . ثم يحقق لها نوعًا من تكييف الهواء بفتح نوافذ سفلية لإدخال الهواء البارد ، ونوافذ علوية لإخراج الهواء الساخن .

ويعيش هذا النوع من النمل حياة طبقية عجيبة . . فتجد فيه الملكة والأميرات والضباط ولكل منها مساكنه الخاصة ، وباقى الخلية من العمال البروليتاريا تشتغل بلقمتها .

وهناك نوع آخر من النمل المحارب المقاتل الذى يهجم فى جيوش مثل التتار على هذه القصور ، فيقتل الجيش والحراس ، ويستولى على مخازن الطعام والتموين ، وينقل البيض ويتعهده فى بيته حتى يفقس ويخرج منه النمل الصغير فيجعل منه خدمًا وعبيدًا فى مملكته .

وهناك نوع آخر من النمل يعيش على الرعى . . فيرعى قطعانًا من حشرة المن ويحلبها ويعيش على إفرازاتها السكرية .

وللنمل لغة يتخاطب بها . .

وبدون هذا التخاطب ماكان يمكن أن يوزع الوظائف ويقيم نظامًا اجتماعيًا تتباين فيه الاختصاصيات .

وعلماء البيولوجيا يقولون لنا إن النمل يتخاطب عن طريق القبلات . . بلغة كيميائية خاصة يفرزها مع اللعاب . . وبدل الحروف المنطوقة . . هناك درجات وأنواع مختلفة من المذاق . والبعض يقول بل هى لغة إشارية خاصة بقرون الاستشعار .

وللنملة عقل تدبر به حياتها .

فهى تجمع الطعام فى الصيف وتدخره للشتاء .

وتدبر ميزانية مجتمع كبير من النمل بلا عدد فى مواجهة ظروف من البرد والجفاف بالغة الصعوبة .

وأعجب ما فى عالم النمل أن هناك نوعاً يرفض الحياة فى مجتمع ونظام وخلايا ، ويختار أن يضرب فى الآفاق ويهيم . . كل حشرة تهيم وحدها . . تسكن كل ليلة داخل ورقة ذابلة فإذا طلع النهار هجرت مسكنها ورحلت إلى مسكن آخر .

وهكذا تقضى حياتها تتنقل كل ليلة من جرسونيرة إلى جرسونيرة بلا مسئوليات وبلا أعباء . مثل حياة الهيبيين .

عالم مدهش . .

صدقونى ستتعلمون الكثير إذا دخلتم بيت النمل .

كيف تكسب ألف جنيه فورًا

اطمئن . .

لن أقول لك اقطع الكوبون فى أسفل الصفحة وأرسله مع اسمك وعنوانك مع الأجوبة على الاستفتاء كذا . . ولن أحول الموضوع إلى مسابقة تنفق عليها « سيجال » أو إعلان توزع جوائزه « رابسو » .

إنما الموضوع جد .

وسوف أفكر معك بجد .

ولنبدأ من أمثلة بسيطة .

وفى مثل هذا البرد الشديد لا بد أنك فكرت كيف تتدفأ .

وكذلك فكر الإنسان البدائى عندما داهمته أول موجة برد . . وأعمل ذُهنه . . وظل يخبط جبهته بيده ويخبط حجرًا بحجر وهو شارد . . واندلعت أول شرارة مصادفة من صك الحجر بالحجر . . وحملق الإنسان المذهول فى هذه الظاهرة العجيبة .

ولا شك أنه قد اتخذها بعد ذلك لعبة .. حتى أمسكت الشرارة ذات مساء بعود قش جاف وأضرمته نارًا

وتعلم الإنسان منذ ذلك اليوم كيف يحتطب ويجمع الأخشاب . ويشعل النار ويرقص حولها . ويطهو طعامه ويتدفأ .

ثم اكتشف الفحم .

ثم اكتشف البترول .

ثم اكتشف الغاز الطبيعى القابل للاشتعال .

ثم اكتشف الكهرباء .

ثم اخترع جهاز التكييف .

وكانت أول ثروة طبيعية للإنسان هى يديه وحيلته .

وعن طريق يديه صنع الأدوات .

وبهذه الأدوات قطع الأشجار وحفر الأرض لاستخراج الفحم .

وكان هناك رجل أكثر ذكاء اكتفى بالجلوس بعيدًا لا يعمل يديه فى شىء . وإنما يأخذ مما جمعه العامل ليبيعه .

ثم ظهر ناس أكثر ذكاء لا يفعلون أى شىء سوى أن يقوموا بالوساطة بين الأيدى التى تأخذ وتعطى . ويقبضون فى مقابل هذه العملية سمسرة تفوق ما يربحه العامل والبائع .

ثم تعقدت أدوات الإنتاج لتتحول إلى مصانع .

وأصبح المصنع هو قبعة الحاوى التى يوضع تحتها التراب فيخرج منها حديدًا وأسياخًا وصفائح صلب وسيارات وأجهزة تكييف . مع ربح هائل

يدخل معظمه فى جيب صاحب المصنع .

ثم ظهرت مؤسسات بهلوانية اسمها الشركات وظيفتها الإعلان والتسويق والترويج والبيع والتجارة فى تلك المنتجات .. تقوم بالوساطة بين المصنع وبين المشترى وتكسب من الاثنين أكثر مما يكسبه الصانع وصاحب المصنع .

ولأن المال السائل فى قدرته أن يشترى المصنع ويؤسس الشركة فقد أصبح رأس المال بذاته قادرًا على التوالد والتكاثر بدون أن يعمل صاحبه فى شىء.. فقط ماعليه إلا أن يودعه فى بنك فيلد له نسبة مئوية كل سنة.. فإذا أقام به مصنعا أو أسس به شركة فسوف يحصل على نسبة أكبر من الربح .. وإذا وقف يقامر به فى البورصة على اضطراب الأسعار نزولا وصعودًا مع اختلاف إلى العرض والطلب ومع أزمات السياسة وحمى الفقر والغنى التى تتداول الناس والشعوب فسوف يكسب أكثر من الكل لأنه سوف يتاجر فى الفلوس ذاتها ، وسوف يتاجر فى التجارة وفى سعر الذهب والورق الذى لا يستقر على حال .

والأغنياء والأذكياء الجدد الذين اشتروا بأموالهم كل شىء مما كانوا يحلمون به من أرض ودور وقصور ومتاع لم يقفوا عند حد ، لأن ثرواتهم لم تكن تقف عند حد ، فبدءوا يشترون الذمم ثم يشترون الأحزاب والحكومات ثم يحركون السلطة لصالحهم فيدفعونها إلى تجييش الجيوش وغزو البلاد المتخلفة واستعمارها لتكون أسواقًا جديدة ، ومصادر جديدة للثروة والقوة .

وآخر صورة محزنة من هذا الذكاء البشرى هو مانراه الآن ، فالأقوياء الأغنياء لم يعودوا يفكرون حتى فى أن يحاربوا .. وإنما اكتفت الدول

الكبرى بأن تصنع السلاح ثم تبيعه للأمم الفقيرة الصغيرة لتقتل به بعضها بعضًا . . وتطوع الأذكياء بإشعال الفتن فى هذه الدول الصغيرة البائسة . كلما نامت الخلافات أوقدوا نارها . . بين الهندوس والمسلمين فى الهند ، وبين المسلمين والمسيحيين فى نيجيريا ، وبين الكاثوليك والبروتستانت فى أيرلندا ، لتظل الحرب مشتعلة تأكل السلاح وتبقى على الصغار صغارًا وتجعل الكبار أكبر والأغنياء أغنى .

وبرغم دعاوى الاشتراكية ظل القانون القديم سائدًا . . إن من عنده يربح فيزداد . . ومن ليس عنده يخسر أكثر فأكثر . . الكبير يزداد كبرًا والصغير يزداد صغارًا .

والعلم بتطوره السريع يهدد المتخلفين الذين يزدادون تخلفًا فى معاركهم مع الكبار . . يهددهم بأن يتحولوا إلى قرود ، بالنسبة إلى الأدوات العلمية التى تتطور فى أيدى الكبار فتحولهم إلى عمالقة وأنصاف أرباب .

والدول الكبرى لم تعد تتصرف بحكم المبادىء والأيديولوجيات . . وإنما أصبحت تتصرف بحكم كونها كبرى ويجب أن تظل كبرى وتصير أكبر فى مواجهة دول أخرى « كبرى » تحاول أن تكون أكبر .

وفى حلبة الصراع بين الكبار . . تدوس الأقدام الصغار . . وتدوس مصالحهم ، وتدوس حياتهم .

هل فهمت شيئا من هذه القصة .

لقد فهمت شيئاً من السياسة .

وفهمت أن الإنسان كان يكسب دائمًا باستخدام يديه وعقله وحيلته . .

وأن هناك طريقتين للكسب . أن تكسب بالحيلة الشريفة عن طريق عمل يديك وعمل عقلك ، وأن تكسب بالحيلة الخبيثة عن طريق أيدى الآخرين وعقولهم ، وأن فى الإمكان أن تكسب ألف جنيه بشرف . . وذلك بأن تقدم عملاً أو كشفًا أو اختراعًا أو إمتاعًا أو نفعًا للناس يساوى تلك القيمة . . ولا عذر لك . . ولا يصح لك أن تتعلل بأن حظك من العلم قليل . فقد بدأ أديسون المخترع العظيم حياته صبيًّا يبيع الجرائد . ثم اخترع لنا المصباح الكهربائى والجراموفون . كما بدأ عالم الكهرباء العظيم مايكل فارادای حياته صبيًّا يعمل فى محل تجليد كتب ، ثم اكتشف قوانين الكهرباء التى اخترعت على أساسها جميع أجهزة اللاسلكى فيما بعد .

واللاعب البرازيلى بيليه جمع ثروة هائلة من مجرد إتقان الجرى . وأى اجتهاد فى أى شىء ولو كان اجتهادًا فى اللعب . . لابد أن يؤتى ثمرته .

اعمل بجد فى أى شىء

وإذا لعبت فالعب بجد .

وابدأ فورًا من الآن .

لا تبرر كسلك بأن العلم فى المدارس والجامعات وأنت محروم من المدارس والجامعات . . فالعلم فى الكتب والمكتبات . . وهو متاح على الأرصفة أرخص من علب السجائر .

وهو فى دور الكتب مجانًا .

والقدرة على الابتكار موهبة أودعها الله فى كل عقل . . كل ما عليك أن تبدأ .

غادر مقعدك المألوف على المقهى فورًا . . واكدح بذهنك وبديك فى شىء . . ولا تظن أن « الألف جنيه » قد وقعت على رأس أى واحد بمجرد التمنى وبدون أن يجتهد فى كسبها .

وتأكد أن تسخيرك لذكائك أسهل من تسخيرك للجن .

وثق بأن مفعول ذكائك أقوى من مفعول السحر .

وإذا شككت فى كلامى فاقرأ المقال من جديد لتعلم كيف قامت دول كبرى . . وكيف صنع المصنع ما لا تصنعه قبعة الحاوى . . وكيف صعد الإنسان للقمر بدون بساط سليمان . . وكيف أنك مهدد بأن تتحول إلى قرد إذا ظللت جالسًا فى جلستك اليومية على المقهى لا تجهد ذهنك فى شىء . . والعالم من حولك فى سباق علمى رهيب يفض أسرار الذرة ، ويسخر القوى النووية فى صناعة الأعاجيب . . فيزداد الأقوياء قوة ، ويزداد الضعفاء ضعفًا . . إلى أن يصبح المتخلفون فى مكانة القرود أو أقل من القرود .

هل تشعر بأنى خدعتك .

بل لو كنت قلت لك غير هذا لكنت خدعتك .

صدقنى . . .

التدليك العاطفى

نظرة سريعة على الأفيشات والملصقات وأفلام الحب المرسومة على الجدران . . حب ودماء . . حب وضياع . . حب تحت الشمس . . جنون الحب . . . جريمة الحب . . ليلة حب . . وصورة فخذ عريان فى بانيو . . وامرأة ملقاة فى الفراش وفوقها رجل . . وخنجر مغروز فى صدر عريان . . ومدفع رشاش فى يد امرأة لابسة مايوه . . ومروض وحوش فى يده كرباج وتحت قدميه جينا لولو بريجيدا ومكتوب عليها رغبات شاذة . . ورجل فى حضن رجل ومكتوب عليه علاقة سرية . . وعجوز متيم يحب لوليتا فى الثالثة عشرة من عمرها . . وحب سن الثمانين . . وسفاح الحب . . ولهيب الحب . . ونار الحب . . ولذة الحب .

وما أبعد كل هذا الهذيان عن الحب .

وما أشبهه بمؤامرة على أعصاب المتفرج وجيبه وعقله . .

مؤامرة ابتزاز صريحة تحت شعار أنبل المشاعر الإنسانية . . مشاعر الحب .

لماذا لا يسمون الأشياء بأسمائها الحقيقية ؟

ولماذا لا نقرأ الصور بدقة حتى لا تخدعنا العناوين ؟

لماذا لا نعترف أننا فى عصر الترويج العلنى للدعارة والشذوذ والجريمة . .

وأن بلاتوهات السينما تحولت إلى مخادع للتفرج المشروع على أساليب الغواية الجنسية .

إنه الجنس والدم . . ولا شىء آخر . .

وما أبعد الجنس عن الحب . .

وما أكثر ما يتم الجنس بلا حب . . بل مع الكراهية

وما أكثر ما يتم شراؤه بالمال .

إن الجنس والحب لم يكونا قط توءمين

والحب الحقيقى هو قطعاً شىء آخر غير ما نرى فى السينما .

إنه فى ذلك الحنان الذى رأيناه بين آبائنا وأمهاتنا . . وتلك المودّة والرحمة اللتان تؤلفان بين قلب الرجل وقلب المرأة ، وتصنعان تحالفاً هادئاً على عمل الخير ، وعشرة ناعمة خالية من هذه التشنجات الدرامية التى نراها مدسوسة علينا فى التليفزيون والسينما .

هذه المآسى المفتعلة ، والمواجع المزيفة ، والأنات الجنسية ، والرعشات المخبولة ، هى بضاعة التجار وسلعة المنتجين اليهود . يدسونها لنا مع الأفيون والهروين ، والحشيش والماريجوانا ، وعقار الهلوسة

إنها جزء من عملية واسعة لتخدير العالم تمهيداً للسطو عليه .

وشركات التليفزيون والإذاعة والأسطوانات ودور النشر والمجلات

تسابقت فى نشر هذه الحمى . أحياناً بقصد وأحياناً بغفلة ودون وعى ، كما يحدث فى بلادنا .

وانتشرت الأغانى التى تقوم بهذا النوع من التدليك العاطفى أمثال . .

من سحر عيونك ياه . . وتنطقها المطربة . . من سحر عيونك ياح . .

وتعالى يالله يالله . . تعال يالله يالله . . فى غمضة عين .

وننام على حب ونقوم على حب .

وعذبنى وأنا أجرى وراك .

ويامدوبنى دوب .

وهى أغانى لا تختلف كثيراً عن أغنية كرستين التى تصرخ فيها كرستين بصوت هامس أجش فيه فحيح .

أوه ياحبيبى .

مرة أخرى أرجوك .

ثم نسمع فى ألمانيا عن الهر بواخيم درسين صاحب مجلة « سانكت باولى تسايتونج » وكيف أنه أنشأ حزباً فى هامبورغ أسماه « حزب الحب » وشعار الحزب هو الحرية الجنسية للجميع . . الرجل يتزوج الرجل ، والمرأة تتزوج المرأة ، والأزواج يتبادلون زوجاتهم فى الفراش ، والأولاد والبنات يتدربون على الجنس من سن التاسعة . وحبوب منع الحمل والحبوب المهيجة توضع فى بطاقات التموين وتوزع مع السكر والزيت والشاى وشعار الحزب هو « الجماع بدل الحرب » . فتزحف الشعوب بعضها على بعض ليجامع رجال شعب نساء الآخر فى مؤتمرات للذة بدلا من زحف الجيوش للحرب .

ومجلة الهر بواخيم تبيع مليون نسخة .

وهناك ثلاثة آلاف ألمانى وألمانية يدفع كل واحد عشرة ماركات اشتراكًا شهريًا ورسم ولاء وانضمام لهذا الحزب .

وسكرتيرة الهر بواخيم فتاة جميلة تستقبل الزوار عارية .

وهذه نهاية التدليك العاطفى .. المؤامرة التى رسمها التجار الأذكياء للقضاء على العالم .

أنت إمبراطور

لا تصدقنى إذا قلت لك إنك تعيش حياة أكثر بذخًا من حياة كسرى أنو شروان .. وإنك أكثر ترفًا من إمبراطور فارس .. وقيصر الرومان .. وفرعون مصر .. ولكنها الحقيقة .

إن أقصى ما استطاع فرعون مصر أن يقتنيه من وسائل النقل كان عربة كارو يجرها حصان ..

وأنت عندك عربة خاصة .. وتستطيع أن تركب قطارًا .. وتحجز مقعدًا فى طائرة !

وإمبراطور فارس كان يضىء قصره بالشموع وقناديل الزيت .. وأنت تضىء بيتك بالكهرباء !

وقيصر الرومان كان يشرب من السقا .. ويحمل إليه الماء فى القرب .

وأنت تشرب مياهًا مرشحة من حنفيات ويجرى إليك الماء النظيف فى أنابيب !

ـ وليس الدين وحده هو الذى يدعونا إلى الأخلاق وضبط النفس والتحكم فى الشهوات ، وإنما حضارتنا وأعرافنا وتراثنا ، ثم خبرة حياتنا الخاصة ومعاناتنا الذاتية وتجاربنا واقتناعنا الشخصى .

كل هذا الكسب الذى كسبناه بالعرق والدم لا يصح أن نتركه لفنان ساذج مثل « ماكافيجيف » يمحوه لنا .

وعلينا أن نفتح العيون والعقول جيداً .

فما أكثر الذين يريدون قتلنا باسم الفكر والفن .

وما أكثر مانصفق لأفلام هى الدعارة بعينها .

وليس كل مانقرأ من كتب ونرى من أفلام هى محاولات بريئة لتسليتنا .

وهناك وراء الكواليس عشرات من أمثال « الهر يواخيم دريسن » .. « والبروفيسور ماكافيجيف » .

الشىء التافه

مايجرى فى الكون من أحداث مرتبط ببعضه فى سياق دقيق من الأسباب والمسببات كحلقات سلسلة . لا يهم إن كان بعض هذه الحلقات صغيراً وبعضها كبيراً . فلا فرق بين انكسار حلقة صغيرة أو انكسار حلقة كبيرة ، فالنتيجة واحدة فى الحالين ، وهى تحطم السلسلة وانفراط عقدها .

نحن نقول عن واحد إنه أتفه من ذبابة .

هل فكرت ماذا يمكن أن تصنع ذبابة ؟ !!

إن ذبابة واحدة تافهة يمكن أن تحمل على أرجلها الدفتيريا . والسل . والدوسنتاريا . وشلل الأطفال . والكوليرا . ويمكنها أن تبيد أمة وتفنى جيلا . وتقلب دفة النصر فى معركة .. تفعل كل هذا وهى ذبابة .

إن ميكروباً لايرى بالعين قتل فى سنة ١٩١٩ أكثر من عشرين مليون ضحية .

وراهب منقطع فى دير تمر به وتقول ما أتفه هذا الرجل .. ماذا يفعل فى

وهارون الرشيد كانت عنده فرقة موسيقية تعزف له فى أوقات لهوه وفراغه . .

وأنت عندك مفاتيح الراديو توصلك إلى آلاف الفرق الموسيقية . وتحمل إلى أذنك المبهج والمطرب والممتع من كل صوت وكل فن !

والإمبراطور غليوم كان عنده أراجوز . .

وأنت عندك تليفزيون يسليك بمليون أراجوز .

وعندك السينما سكوب والسينراما !

ولويس الرابع عشر كان عنده طباخ يقدم له أفخر أصناف المطبخ الفرنسى . .

وأنت تحت بيتك مطعم فرنسى ، ومطعم صينى ، ومطعم ألمانى . ومطعم يابانى . ومحل محشى ، ومحل كشرى ، ومسمط ، ومصنع مخللات ومعلبات . ومربات وحلويات !

وقارون أغنى أغنياء العالم يقول لنا التاريخ إن كل ثروته لم تكن تزيد على مائتين من الجنيهات بالعملة النحاسية . . وهو مبلغ تستطيع أن تكسبه الآن فى شهر .

وجوارى الخليفة تجدهن الآن معروضات فى بيجال بباريس بعشرة فرنكات للواحدة . . شقر وسمر وسود وبيض من كل لون أوكازيون .

ومراوح ريش النعام التى كان يمروح بها العبيد على وجه الخليفة فى قيظ الصيف ولهيب آب ، عندك الآن مكانها مكيفات هواء تحول بيتك إلى جنة بلمسة سحرية لزر كهربائى !

أنت إمبراطور .

وكل هؤلاء الأباطرة جرابيع وهلافيت بالنسبة لك . .

ولكن يبدو أننا أباطرة أغبياء جدًّا . . ولهذا فنحن تعساء جدًّا برغم النعم التى نمرح فيها .

فمن عنده عربة لا يستمتع بها ، وإنما ينظر فى حسد لمن عنده عربتان . . ومن عنده عربتان يبكى على حاله ، لأن جاره يمتلك طائرة . . ومن عنده طائرة يكاد يموت و الحقد والغيرة ، لأن أوناسيس عنده مطار . . ومن عنده زوجة جميلة يتركها وينظر إلى زوجة جاره .

وفى النهاية يسرق بعضنا بعضًا . ويقتل بعضنا بعضًا حقدًا وحسدًا .

ثم نلقى بقنبلة ذرية على كل هذا الرخاء . . ونشعل النابالم فى بيوتنا . . ثم نصرخ بأنه لا توجد عدالة اجتماعية . . ويحطم الطلبة الجامعات . . ويحطم العمال المصانع . .

والحقد — وليس العدالة — هو الدافع الحقيقى وراء كل الحروب .

ومهما تحقق الرخاء للأفراد فسوف يقتل بعضهم بعضًا ، لأن كل واحد لن ينظر إلى ما فى يده . وإنما سينظر إلى ما فى يد غيره . ولن يتساوى الناس أبدًا .

فإذا ارتفع راتبك ضعفين فسوف تنظر إلى من ارتفع أجره ثلاثة أضعاف . وسوف تثور وتحتج ، وتنفق راتبك فى شراء مسدسات .

لقد أصبحنا أباطرة . . هذا صحيح . . ولكننا مازلنا نفكر بغرائز حيوانات .

تقدمنا كمدنية وتأخرنا كحضارة .. ارتقى الإنسان فى معيشته وتخلف فى محبته ..

أنت إمبراطور .. هذا صحيح . ولكنك أتعس إمبراطور ...

وسوف تقتل نفسك وتترك بطاقة مضحكة تقول فيها : انتحرت بسبب الفقر . لم أستطع أن أعيش إمبراطورًا فى عالم كله من « السوبر أباطرة » .

الواقع الكذاب

ماتراه فى الواقع ليس دائماً هو الحقيقة ..

حتى ماتراه رأى العين وتلمسه لمس اليد ..

فنحن نرى الشمس بأعيننا تدور كل يوم حول الأرض . ومع ذلك فالحقيقة أن العكس هو الصحيح . والأرض هى التى تدور حول الشمس .

ونحن نرى القمر فى السماء أكبر الكواكب حجماً . مع أنه أصغرها حجماً .

ونحن نلمس الحديد فنشعر أنه صلب متدامج . مع أنه فى الحقيقة عبارة عن ذرات منثورة فى فراغ مخلخل . وبين الذرة والذرة كما بين نجوم السماء بُعدًا .. وما يخيل لنا باللمس أنه صلابة وتدامج هو فى الحقيقة قوى الجذب المغنطيسى الكهربائى بين الذرة والذرة .. نحن نلمس القوانين بأصابعنا وليس الحديد .

ونحن ننظر إلى السماء على أنها فوق . والأرض على أنها تحت . مع أنه

لا يوجد فوق ولا تحت . والسماء تحيط بالأرض فى كل جوانبها .

والهرم بالنسبة لنا شىء لا يمكن اختراقه . مع أنه بالنسبة للأشعة الكونية شفاف كلوح الزجاج . ترى من خلاله وتنفذ من خلاله .

وصقيع القطبين الذى نظن أنه غاية فى البرودة هو بالنسبة لبرودة أعماق الفضاء جحيم ملتهب .

وفى الحقائق الإنسانية تكذب علينا العين واللسان والأذن أكثر وأكثر . . فالقبلة التى تصورناها فى البداية مشروع حب نكتشف فى النهاية أنها كانت مشروع سرقة .

وجريمة القتل التى أحس الجميع أنها ذروة الكراهية يكتشف الجميع أنها ذروة حب .

وما قد يبدو للزوج أنه خيانة من زوجته لفرط إحساسها بجمالها قد يكون الدافع الحقيقى له هو إحساس الزوجة بقبحها وشعورها بالنقص ، تحاول الخلاص منه باستدراج إعجاب الرجال ، والانتقال من خيانة إلى أخرى .

وما تكتب عنه الجرائد بالإجماع على أنه بطولة قد يعلم البطل نفسه أنه كان انتحارًا .

وفى الحقائق الاجتماعية تتعقد الأمور أكثر ، ويغرق الحق فى شبكة من التزييف تشترك فيها كل الإرادات ، ويصبح الحكم على الأمور بظاهرها سذاجة لا حد لها .

وفى الحقائق التاريخية يكتب المؤرخون فى كل عصر ومن ورائهم السلطة ، وتكتب أقلامهم ما يريد الأقوياء أن يقولوا .

وما أصعب الوصول إلى الحقيقة . . .

إن الوصول إلى المريخ أسهل من الوصول إلى حقيقة أكيدة عن حياة وردة تتفتح كل يوم عند نافذتك . . بل إن الوصول إلى أبعد نجم فى متاهات الفضاء أسهل من الوصول إلى حقيقة ما يهمس فى قلب امرأة على بعد شبر منك . .

بل إن عقولنا تزين علينا حتى عواطفنا نفسها . فنظن أن حب المجد يدفعنا والحقيقة أنه الغرور وحب الذات . . ونظن أن العدالة هى التى تدفعنا إلى القسوة فى حين أن الذى يدفعنا هو الحسد والحقد .

من الذى يستطيع أن يقول . لقد أدركت الحقيقة ؟

من الذى يجرؤ أن يدعى أنه عرف نفسه ؟

ليس من باب التواضع أن نقول . الله أعلم .

وإنما هى الحقيقة الوحيدة الأكيدة فى الدنيا . . إننا نجهل كل الجهل حتى ما يجرى تحت أسماعنا وأبصارنا

وبرغم جهلنا يتعصب كل فريق لرأى . . وقد تصور كل واحد أنه امتلك الحق ، فراح ينصب المشانق والمحارق للآخرين .

ولو أدركنا جهلنا وقدرنا لانفتح باب الرحمة والحب فى قلوبنا ، ولأصبحت الحياة على الأرض جديرة بأن نحياها .

متى نعرف أنا لا نعرف ؟ !

الجمع والطرح

أكثر ما نرويه من قصص الغرام هي فى نظرى ألوان مختلفة من الصراع على السلطة.

الرجل يحب المرأة يمتلكها ويعلن عليها الوصاية والحراسة. ويعطيها اسمه لتكون مجرد امتداد له.. وما حبه إلا أنانية. وقد وجدت لها اسمًا جديدًا لطيفًا مشروعًا.

فإذا اكتفى بها عشيقة فى سلك حريمه فهو يحقق بها رغبته الخبيثة فى الظهور كدون جوان ذى فحولة ورجولة لا تقاوم.

والمرأة هى الأخرى تحاول أن تسجنه بوسائلها. فتحاصره بالغيرة والواجب الزوجى والأولاد، فإذا لم تجد غيرتها بدأت تثير غيرته هو عليها لتجعل حياته جحيمًا مشتعلاً، وانحصارًا دائمًا فى التفكير فيها وفيما تفعله وأين ذهبت ومن أين أتت. وهدفها النهائى أن تسجن عقله كما سجن هو جسمها. فإذا لم تستطع أن تستولى على عقله استولت على جيبه. أو جعلت

منه سُلّمًا للشهرة ، ودعاية ذائعة عن أنوثتها .

كل منهما يحاول أن يفوز بالسلطة .

أنانية تحاول أن تبتلع أنانية .

وغريزة تحاول أن تلهب غريزة .

صراع حيوانى بالناب والمخلب والأعضاء التناسلية نسميه كذبًا وافتراء « الحب » . .

والنتيجة أن حاصل جمع الزواج يكون غالباً صفرًا . إنه الواحد والواحد اللذان لا يؤديان إلى اثنين ، وإنما يؤديان إلى صفر .

المرأة التى تتخيل بعد الزواج أنها ستكون لها حريتان .. حاصل الجمع الطبيعى لحريتها وحرية زوجها . . تفقد حتى حريتها الوحيدة . . والرجل الذى يتصور أن حب زوجته سيكون طريقه إلى حب الحياة والناس يكتشف أن عليه أن يكره الناس وينفر من الكل ، وينعزل عن الدنيا ، ليلقى بنفسه بين أحضان زوجته ليكون حبيبًا حقيقيًا . . وكأن الزواج هو حاصل طرح وليس حاصل جمع .

وبعد معركة دموية يكتشف الرجل فى آخر العمر أن ماكان يجرى وراءه باسم الحب لم يكن حبًا ، وإنما كان صراعًا على السلطة . . من الذى يحكم ؟ ومن الذى يرفع راية الاستسلام ؟

أما الحب فما أندر وجوده .

الحب الذى يتسم بانفتاح كامل على العالم . . الحب الذى تكون المرأة فيه دليل الرجل . . والرجل دليل المرأة فى رحلة الحياة . . لا يقف أحدهما

ليحيط بعنق الآخر ساعيًا إلى امتلاكه . . وإنما كل منهما يطلق الآخر من قيده ساعيًا إلى تحريره . . حيث يكون موضوع الحب النهائى لكليهما هو الحياة ذاتها ، يجدّان فيها متشاركين بجهدهما ومساهمتهما ليصنعا شيئا مفيدا . . هذا الحب ما أندره !

وليس ما نرى حولنا فى السينما وفى الكتب إلا ذلك الحب الصغير الذى يتألف من الرجل والمرأة والجنس ، والفلك المقفل الذى يضمها فى عزلة عن كل شىء . . كل منهما هدفه وغايته هو الآخر . . ثم فراغ وعدم ولا أحد . . وجوع ولا شبع فيه ولا نهاية له . . لأن ما يرتشفه الاثنان لا يروى الغليل ، فما يرتشفان سوى وهم اللحظات .

أحياناً أشعر أنَّ من عرفوا الحب فى هذه الدنيا كانوا قليلين جدًّا .

وأنَّ المسيح أحب كل الحب ومثله كل الأنبياء والمصلحون العظام ، لأن كلا منهم أعطى ولم يأخذ وكلا منهم اتسع قلبه للكل وليس لواحد .

هل يمكن أن تساعد امرأة زوجها ليكون غاندي ليعطى نفسه للدنيا بدلا أن يعطى نفسه لها !

لا أدرى . . ولا أحب أن أتهم النساء جملة . . ولكنى لا أظن أننا يمكن أن نعثر على كثيرات يرتضين لأزواجهن مصير غاندى .

وفى لندن ذاتها قلعة الحضارة وذروة العقل فى هذا العالم ، مازالت المرأة تفكر بطريقة الرجل الشرقى الذى يحتفل بالجنس والوجبة الطيبة ، والرصيد الوفير فى البنك ، والعربة الفخمة التى تقف على الباب !

وفى الريف الفرنسى مازال الرجل يغار ويقتل زوجته كأى رجل صعيدى .

وفى محاولة الرجل العصرى أن يتمرد على الفشل والملل وقع فى الشذوذ الجنسى . وإذا به فى الشذوذ الجنسى العشيق الأنانى نفسه الذى يغار ويطلق الرصاص على عشيقه الخائن .

الأنانية استبدلت موضوعاتها وهذا كل ما حدث .

بدلا من أن تستهدف موضوعًا طبيعيًّا . . استهدفت موضوعًا شاذًّا . . وهذا كل شىء . . مجرد تمرد (أو هو فى الحقيقة منتهى الاستسلام والخضوع لاستعباد الحواس) . .

الغرائز رفعت أعلامًا مختلفة . ولكنها الغرائز إياها

أما الحب – الحب الكبير – فمازال شيئًا نادرًا . . وإحدى طرائف هذا العصر .

بعض التواضع

نحن فى عصر العلم ما فى ذلك شك . صواريخ . . طائرات . . أقمار صناعية . . أدمغة إليكترونية . .

ونحن فى عصر الجهل ما فى ذلك شك . فكل هذه الوسائل والاختراعات العلمية نستخدمها فى قتل أنفسنا وفى التجسس على أنفسنا .

والذى لا يقتل يقول فى غرور . أنا الذى سوف أسبق إلى القمر . . أنا شعب الله المختار . . أنا على حق والآخرون على الباطل . . أنا أبيض . . أنا جنس آرى . . أنا جنس سامى . .

وبين الغرور والاستعلاء والكبرياء والعدوان يضيع العلم . ويفتضح العلم . فإذا هو تفاخر الجهلاء بما يصنعون من لعب أطفال .

وأجهل الجهل أن نجهل أمرًا جوهريًّا واضحًا كالنهار .

أن يجهل العالم العظيم والمخترع العبقرى أنه مخلوق . . وأنه يعيش على سلفة . . على قرض . . السنوات القليلة التى يعيشها هى قرض وسلفة بأجل

محدود . . وأنه لا يملك هذا القرض ولا يستطيع أن يمدَّ فى أجله .

كل « نبضة قلب » ، وكل خفقة أنفاس ، وكل خاطر ، وكل فكرة ، وكل خطوة ، هى قرض . . سلفة . . هى قرش ينفق من الرصيد .

وهو رصيد لا نملكه ولم نبذل فيه جهدا . . وإنما هو عطاء مطلق أعطى لنا منذ لحظة الميلاد .

المخترع لا يخترع وإنما يجيئه الخاطر كما ينزل ندى الفجر على الزهر .

والشاعر لا يؤلف من عدم . وإنما يهبط عليه إلهام الشعر فيورق عقله كما يورق الشجر فى الربيع .

فهل يمتلك الشجر أزهاره أو أنها هبة الربيع ؟

والعلم ذاته هبة .

الكهرباء موجودة منذ الأزل من قبل أن تكتشف بملايين السنين . وهى التى كانت تضىء السماء بالبروق والصواعق .

نحن لم نخترع الكهرباء ولم نأت بها . فهى موجودة .

وكذلك إشعاع الراديوم وطاقة الذرة ومغناطيسية الحديد .

كل هذه كنوز موجودة تحت أيدينا .

وهى بعض الهبات التى وهبناها دون أن نطلبها

نحن العلماء لا ندرك هذا . . وإنما نقول : اخترعنا . ابتكرنا . صنعنا . ألفنا . صنفنا .

ثم لا ندرك ما هو أخطر وأكثر وضوحاً وبداهة . . إن العمر الذى نعيشه هو أيضاً هبة لم نطلبها ولم نجتهد فيها .

الجميلة لم تجتهد لتولد الجميلة

والقوى لم يجتهد ليولد قويًا .

والحاد البصر لم يجتهد ليولد حاد البصر .

ونحن لا نقوم بصيانة هذا الشىء المعقد الملغز المعجز الذى اسمه الجسد الحى . . وإنما هو الذى يقوم بصيانة نفسه بنفسه بأساليب محيرة .

نحن ننفق من شيك لا نملكه . . ومع ذلك نتبجح طول الوقت ونقول . . نحن اخترعنا نحن صنعنا . . نحن عباقرة . . نحن عظماء . . نحن على حق والآخرون على خطأ . . نحن بيض وهم حيوانات . . نحن جنس سامىّ وهم جنس منحط . ثم نقتتل على ثروات لا نملكها ولا فضل لنا فيها جميعًا .

ولا فضل لنا حتى فى تكويننا الجسمانى .

نحن مجرد مخلوقات تولد وتموت وتعيش على هبة محدودة من الخالق الذى أوجدها . ولو كنا نملك أنفسنا حقيقة لما كان هناك موت .

ولكن الموت هو الذى يفضح القصة .

هو الذى يكشف لنا أن ما كنا نملكه لم نكن نملكه .

الشيخوخة هى التى تفضح جمال الجميلة فإذا بجمالها هبة زائرة لا حقيقة باقية .

ولكننا نحن العلماء نجهل هذه الحقيقة الأولية الشاخصة ملء العين كشمس النهار .

ولو أدركنا هذه الحقيقة البسيطة لانتهت الحروب وحل السلام وملأت

المحبة القلوب وأشرق التواضع ليجمع العالم فى أسرة واحدة .

لو أدركنا هذه الحقيقة البسيطة لانتهت الحروب وحل السلام وملأت المحبة القلوب وأشرق التواضع ليجمع العالم فى أسرة واحدة .

لو أدركنا هذه الحقيقة لالتفتنا التفاتة شكر إلى الوهاب الذى وهب .

هل أخطئ إذا اعتبرت هذا العصر أظلم عصور الجاهلية ؟ ! .

يُوجا

سعيت وراء علماء التشريح لأعرف ماهو الإنسان .

سرت وراء المشرط وهو ينقب فى الأحشاء والمصارين واللحم والعظم . . وهو يفتح القلب ويتتبع الأعصاب حتى نهايتها . . وهو يقطع المخ نصفين ، ثم يقطع كل نصف إلى نصفين .

وبعد ثلاثة آلاف صفحة من كتب التشريح لم أصل إلى شىء وكأنما فتحت حقيبة فوجدت داخلها حقيبة ثم حقيبة . وفى نهاية المطاف اكتشفت أنى مازلت واقفاً فى مكانى أدق على الباب نفسه من الخارج . لم ألج إلى الداخل قط .

كنت طول الوقت أتحسس كسوة ذلك الإنسان لأكتشف أن القناع الذى يحجبه ليس ثيابه وحدها . . وإنما جلده ثوب آخر . . ولحمه وشحمه وعظامه كلها ثياب . . أما هو نفسه فبعيد . . بعيد . . تحت هذه الأقمشة السميكة من اللحم والدم .

قالت لى كتب التشريح إن الإنسان مجموعة من الأحشاء فى قرطاس من الجلد .

ولكنها لم تصف لى الإنسان على الإطلاق . وإنما وصفت ثيابه . أما قلبه . أما عواطفه . فإنها ليست فى تلك الكتب . . إنها فينا نحن الأحياء .

إنها الزامر الذى ينفخ من الداخل فى ذلك البوق الجسدى الذى يتألف من الفم واللسان والشفتين واليدين والرجلين فتنطق وتتحرك كأنما هى دمى خشبية تحركها خيوط خفية من وراء خباء .

إنها العاطفة . . الإرادة . . الروح . . النفس . . الـ أنا . . سمها كما تشاء . . ولكنها دائماً غاية فى الوحدة والبساطة .

ووراء هذا العديد المتعدد من الأعضاء هناك وحدة .

هناك دائماً واحد فقط يتكلم من داخل المعمار الجسدى المعقد التركيب المتعدد النوافذ والشرفات . . واحد فقط بالرغم من هذه الألوف المؤلفة من الأنسجة والملايين بلا عدد من الخلايا .

فإذا نظرت إلى الطبيعة حولك بما يتعدد فيها من إنسان وحيوان ونبات لمست مرة أخرى نوعاً ثانياً من الوحدة . . فهذا الشتيت المختلف من أشكال الحياة يخفى وراءه وحدة .

ليست مصادفة أن تركيب جسمى وتركيب جسمك واحد .

ولاهى مصادفة أننا . لنا رئتان مثلما للحصان والحوت والعصفور . . وأن رقبة الزرافة على طولها بها سبع فقرات مثل رقبتك القصيرة تماماً . . وأن ذيل القرد لك ذيل مثله ضامر متدامج ملتحم . فى مؤخرتك . . وبالمثل

أجنحة الخفافيش هى أذرع مثل أذرعك لها العدد نفسه من الأصابع والعظام والمفاصل . كل ماتمتاز به أن جلدها مشدود عليها كالستارة .

وأنت والشجرة تتألفان من المواد ذاتها . . كربون وماء وأملاح معدنية . . وكلاكما تتحولان بالاحتراق إلى فحم .

وكل أنواع الحياة تنهدم بالموت فتستحيل إلى تراب .

أكثر من هذا . يقول لك الفلكى : إن هذا التراب يحتوى على المواد نفسها التى تتركب منها الشمس والنجوم والكواكب . . وإنك مهما أوغلت فى السماء بين النجوم تجد دائماً الشىء نفسه . والمواد ذاتها . .

كل العالم من مادة واحدة أولية .

لايمكن أن تكون كل هذه مصادفات .

وإنما هى أصبع تشير إلى أن هناك وحدة نسيج فى هذا الكون المتسع العظيم . وأنه بالرغم من الكثرة الظاهرة والتعدد والاختلاف فى الأشياء فإنها فى الواقع ليست مختلفة . . وإنما هى مجرد عمائر وتراكيب مختلفة لشىء واحد .

كما تظهر الطاقة مرة على شكل كهرباء . ومرة على شكل حرارة . ومرة على شكل ضوء . ومرة على شكل مغناطيسية . وهى دائماً الشىء الواحد ذاته .

الوحدة . .

هذا هو موضوع اليوجا .

والمعنى الحرفى لكلمة يوجا بالهندية هو « الاتحاد وإدراك الوحدة فى

الأشياء » . . ألا تنظر إلى الدنيا على أنها أنا وأنت وهو وهى وهم . . ثم تتقاتلون جميعًا . . فهذه خدعة . . وأنتم جميعًا فهذه خدعة . . وأنتم جميعًا واحد . ومايقع للآخر يقع عليك من حيث لاتدرى . . والألم الذى توقعه بالآخرين يجرحك حيث لاتحس فى أعمق الأعماق .

هذا الصراع بينك وبين الآخرين هو تخريب أساسى لفطرة واحدة .

إذا أردت أن تعيش بكل وجودك فعليك أن تفتح ذراعيك لتحتضن كل شىء .

وحيثما توجهت لن تكون فى غربة . فالطبيعة حولك هى أنت . . والناس هم أنت . . والوردة هى أنت . . والنجوم أنت .

أنت وأنا وهو وهم شىء واحد .

هل تستطيع أن تدرك هذه الوحدة ؟

علوم اليوجا تقول إنك لاتستطيع أن تدركها إلا إذا تحررت من تقاليدك . . وأخضعت جسدك وعواطفك وغرائزك وعقلك تمامًا .

إذا أردت أن تسمع صوت الواحد فى داخلك فلابد من إسكات صوت المتعدد أولا . . لابد من إسكات صوت الجسد والنفس والغريزة والرغبة والعقل .

وإخضاع الجسد تختص به علوم « الهاتايوجا » وهى التمرينات الرياضية المعروفة .

وإخضاع العقل تختص به علوم « الراجايوجا » . . . . وهى تمرينات على التأمل والتركيز .

وإذا استطعت إسكات كل شىء فسوف تسمع من أعماق الصمت فى داخلك صوت الواحد .

سوف تشعر بالقرابة الحميمة بينك وبين الأشياء . . سوف يعزف فى داخلك لحن الانسجام بينك وبين العالم . إذ تدرك التوافق العميق بين عناصرك وعناصره . . وتسودك طمأنينة قدسية فلم يعد هناك داع للتعجل . . مايفوتك باليمين سوف تحصل عليه باليسار وفى الهند يسمون هذا الواحد « اتمان » . . وفى صلاة هندية قديمة لهذا الواحد يقول الشعر السنسكريتى :

إذا ظن القاتل أنه قاتل
والمقتول أنه قتيل
فليسا يدريان ماخفى من أساليبى . .
حيث أكون الصدر لمن يموت
والسلاح لمن يقتل
والجناح لمن يطير
وحيث أكون لمن يشك فى وجودى
كل شىء حتى الشك نفسه .
وحيث أكون أنا الواحد
وأنا الأشياء .

وكأنما شعر جميع المفكرين بهذا الواحد الخفى . وحاول كل منهم أن يعبر عنه بطريقته . فى فلسفة شوبنهور كان اسمه « الإرادة » . وفى فلسفة نيتشه كان اسمه « القوة » . وفى فلسفة هيجل « المطلق » . وفى فلسفة

هذه الدنيا ؟ . لماذا لا يخلع ملابس الرهبنة وينزل إلى خضم الحياة ويعمل ويؤثر فى الأحداث .. مثل هذا الراهب ليس تافهاً ، فهو يمكن أن يكون « مندل » الذى اكتشف قوانين الوراثة وهو يلقح أزهار حديقته ويتأمل فى نسلها .

وهذا الكيميائى الذى يترك كل شىء ويكتب بحثاً فى العفن لا تتهمه بالجنون ، لأنه لم يبحث لك كما تريد فى مبيدات قواقع البلهارسيا أو دودة القطن .. فالعفن ليس شيئاً تافهاً .. ألم يخرج لنا البنسلين ؟ !

وما أتفه الذَّرة .. أليس كذلك ؟

إنها لا تُرى بأكبر ميكروسكوب

وهى ليست سوى فرض من فروض الكيمياء .

ومع ذلك فإن تلك الذَّرة المفترضة هى التى أنهت الحرب العالمية الثانية وجعلت اليابان تركع على قدميها .

وهى التى سوف تقود أول سفينة بشرية إلى المريخ .

والملازم ديغول فعل ما لم يستطع أن يفعله الماريشال بيتان .

وأم بيتهوفن لا أحد يعرفها وهى فى عصرها كانت امرأة من ملايين لا تقدم ولا تؤخر .

ولكن ألم تنجب لنا هذه الأم بيتهوفن ولولاها لما جاء إلى الوجود .

إنها سلسلة من الحلقات كما قلت

سلسلة مترابطة . لا يهم أبداً أن يكون بعض هذه الحلقات صغيراً وبعضها كبيراً . فبدون أى من تلك الحلقات لا يكون للسلسلة وجود .

لا يوجد شىء تافه وشىء عظيم .

والذى يقول لك أنت تافه لأنك لم تفعل فى نظره شيئاً ذا بال إنما يدل بكلامه على جهله . فمن يدرى ماذا تفعل غداً . ومن يدرى ماذا يترتب على مجرد وقوفك بدون فعل . إن عدم الفعل يكون له فى دورة الأحداث أثره مثل الفعل . والسكوت يكون أحياناً أخطر من الكلام .

الحضارة المادية عظيمة . ألم تصنع لنا القطار والطيارة والسيارة والراديو والتليفون والتليفزيون والمدفع والقنبلة .

والحضارة الروحية تخاريف . هكذا يقول البعض . فما هو دور يوجا منقطع للتأمل فى كهف من كهوف التبت .

ولكن من يدرى ؟

لو كنت حكيماً لقلت من يدرى . فقد تحطم هذه الحضارة المادية نفسها بنفسها ، وقد ترسل العالم بقنبلة من قنابلها إلى قاع المحيط فتصبح هى ذاتها خرافة مثل خرافة « الأتلانتيس » القارة التى غرقت بمن عليها فى قاع المحيط ... ولا يبقى للدنيا إلا سلالة ذلك اليوجا تبدأ من عنده العلوم والمعارف والمدنية من جديد .

ألم تبدأ بشائر هذه المهزلة بالفعل ؟ فها هى ذى أمريكا وروسيا تتنافسان على أسلحة الدمار .

ساذج العقل من يقول لك أنت تافه . فلكل شىء فى هذه الدنيا خطره مهما كان صغيراً ضئيلاً . ولقد تغير أنت الدنيا . وقد تفتح عينيك غداً فتكتشف شيئاً . وقد تكون وأنت الجندى اليوم قائد المعركة غداً .

ماركس « المادة » . وفى فلسفة برجسون « الطاقة الحية » . وفى الأديان السماوية اسمه الله . .

اتفقت جميع الأصابع التى تشير على أن هناك شيئًا داخل خباء ذلك الكون يحرك خيوطه . . وكل الخلاف هو خلاف أسماء .

ولهذا تقول علوم اليوجا . . لاتحاول أن تسمى مالايمكن تسميته . . تأمل . . لاتنطق بحرف .

عليك بالإصغاء إلى صوت الصمت . . ثم جاء الإسلام بأجمل وأصدق تعريف بذلك الذى من وراء الصمت . . لم يخلط الخالق بالمخلوق كما خلطت اليوجا الهندية كل شىء فى وحدة الوجود فجعلت من القاتل والقتيل والسكين شيئا واحدا تضيع معه المسئولية ويضيع الجزاء فى ضباب الشعر . .

وإنما قدم القرآن أنقى صور التوحيد وأرقى صورة لوحدة الخالق ووحدة المخلوقات . . فتوحدها لأنها منه . . أما هو فمتعال عليها . . سبحانه . . ليس كمثله شىء .

أسرار الحروف

لكل حرف من الحروف سر . .

حرف مثل الحاء نجده يدخل فى كل ماهو ساخن ملتهب مثل . . حب . حرب . حريق . حارق . حار . حراق . حامض . حمى . حرارة . حام . حك . حكة . والطفل حينما يلمس سطحًا ساخنًا يصرخ فى تلقائية . . أح . لايرد على لسانه إلا حرف الحاء . فينطق إلهامًا بلا تعلم .

إن فى ذات الحرف سرًا ومعنىً .

وحرف مثل الضاد نجده يدخل فى كلمات الشدة والغلظة والأذى مثل . . ضر . وضرر . وضغن . وضرب . وضراوة . وضيق . وضائقة . وضنى . وضنك . وتضعضع .

إن فى ذات الحرف سرًا لاشك فيه .

وحينما وقف المفسرون أمام الحروف الواردة فى القرآن مثل ا ل م . . كهيعص . . طسم . . ن . . ص . . حاروا فى معانيها واختلفوا . . البعض

قال إنها حروف يتألف منها اسم الله الأعظم . . البعض قال إنها صنوف من القسم أقسم بها الله كما نقسم نحن بالكعبة والكتاب الشريف . . والبعض قال إنها رموز كل حرف منها يرمز إلى شىء . . الألف مثلا ترمز إلى الله . والميم ترمز إلى محمد (صلعم) . . تماما كما نقول « صلعم » بدلا من ﷺ . وكما نقول ج . م . ع . بدلا من جمهورية مصر العربية .

والبعض قال إن الله قدم بها السور ليقول لنا . . هذه هى الحروف التى خلقت منها القرآن .

والبعض قال . . لا أعلم .

ولكنى أعتقد أن مفتاح معناها فيما قدمت فى بداية مقالى . . من أن كل حرف له سر ومعنى خاص به وذاتية . . كل حرف له مكامن ومغاليق .

هل كانت مصادفة أننا نسمى الوالد فى لغتنا العربية أب . .

وفى اللغة الفرنسية . . بابا . . وفى اللغة الزنجية . . بوبا . .

وهل هى مصادفة أن الوالدة باللغة العربية . . أم . . وبالإنجليزية ماما . . وبالفرنسية مامون . . وبالزنجية موما . .

كما أن الكهف بالعربية كهف وبالإنجليزية CAVE وبالإيطالية CAVA وبالفرنسية CAVE وهو نفس النطق تقريبا .

إنها ليست مصادفات .

إنها التقت فى التركيب بالرغم من اختلاف اللغات لأن الحروف لها ذاتية واحدة .

والحروف واحدة فى جميع اللغات .

وهى مخلوقة ومنزلة من ضمن ماخلق الله وأنزل علينا . . معان وأسرار وأرزاق . . ونحن لم نخترعها اختراعا .

والقرآن يقول لنا إن الله علم آدم الأسماء كلها .

والأسماء قد تكون اللغات أو الحروف أو المعارف أو العلوم أو هى جميعها . .

وقد تعلمت من طول التأمل ألا أستهتر بحرف ولو كان حرفا واحدا . . فإن الحروف تؤلف الكلمات . . والكلمات تنقل الجبال وتهدم الإمبراطوريات وتبنى حضارات وتدك حضارات . .

وكلمة تخرج من فمك قد يكون فيها موتك أو ميلادك

والله خلق العالم بكلمة . . كن . .

وبين الكاف والنون ولد الكون .

وفى الكاف الإلهية أسرار . .

وفى النون الإلهية أسرار . .

وبين الكاف والنون طلاسم مطلسمة لاعلم لأحد بها . ونحن لم نكتشف من أسرار الحروف ووظائفها إلا أقل القليل . .

ومن الحروف التى نعلمها يمكن أن توجد لغات لانعلمها . . غير العربية والإنجليزية والفرنسية والألمانية وغير اللغات التى نتبادلها على الأرض . .

والحروف مثلها مثل الأرقام جاءتنا إلهاما من الواحد إلى العشرة . . لم نخترعها وإنما ولدنا بها . . وبالمثل أوليات الحساب .

٢ + ٢ = ٤ حقيقة ولدنا بها .

وكل مايحدث فى تعلم جدول الضرب أننا نجاهد لنتذكره فكل مافى جدول الضرب عبارة عن أوليات مكنوزة ومذخورة فى عقولنا منذ الميلاد .

ومن الحروف والأرقام يتألف العالم .. وتبنى القوانين التى تمسك بالنجوم فى أفلاكها والشموس فى مجراتها ..

قانون عدم المساواة

الدنيا ليس فيها مساواة .

لامساواة فى أى شىء .

كل وردة لها رتبة مختلفة من حيث الشكل والرائحة والجمال . لاتتساوى وردتان .

وفى نفس عائلة القطن نجد السكلاريدس .. وجيزة ٧ .. وجودفير .. وفولى جود فير .. وطويل التيلة وقصير التيلة .. لايتساوى أخوان فى العائلة الواحدة .

وفى الفاكهة نجد فى عائلة واحدة كالبلح مثلا عشرات الرتب والدرجات والأصناف .. الزغلول والسمانى والحيانى والأسيوطى والرشيدى وبلح « عيشا » .. وكل صنف له طعم ونكهة ومذاق .

وعلماء الحشرات يصنفون لنا من الحشرة الواحدة كالنمل أكثر من ألف

نوع وكل أسرة من أسر النمل يقولون لنا إن فيها أكثر من مائة مصنف ومصنف .

وفى الإنسان يزداد التفاوت والتفاضل . . فنجد الذكى والغبى . والأحمر والأسود والأصفر والأبيض والأشقر ، والطويل والقصير . والسمين ، والأصلع والكثيف الشعر . . ونجد من يولد بحنجرة من ذهب ومن يولد بحنجرة من خشب . . ومن يولد جميلا ومن يولد قبيحًا . .

بل إن كل إنسان يحمل بصمة أصبع مختلفة .

وكل إنسان هو رتبة فى ذاته .

كل إنسان يتسلم لحظة ميلاده بطاقة تموين وإذن صرف وشيك ، وثروة من المواهب والتسهيلات خاصة به .

وأكثر من هذا يولد كل مولود بعدد من خلايا المخ محدود غير قابل للتجدد أو التكاثر ، ومايموت من هذه الخلايا لايستحدث . . ولكل واحد منا عدد من هذه الخلايا هى كل ثروته . . وكل واحد يوهب عددًا من هذه الخلايا مختلفًا عن الآخر .

ومعنى هذا أن الدنيا كلها تقوم على قانون التفاضل والتفاوت . . وأن عدم المساواة هو القاعدة فى كل شىء . . فى النبات والحيوان والإنسان والجماد . . حتى الجماد كل مادة فيه لها بلورتها الخاصة . ولها وزنها الذرى ، ووزنها الجزئى . ولها هندستها الخاصة فى توزيع الإلكترونات وعددها . لامساواة على الإطلاق .

هكذا أراد خالق الكون لخلائقه .

هو أراد – لحكمة يعلمها – أن يخلقنا درجات .

ولعله خلق فينا القوى والضعيف ليختبرنا وليظهرنا على نفوسنا .

هل يأكل القوى الضعيف أو يحنو عليه ويعطف عليه ويساعده ؟ .

هل يدرك القوى أن قوته من الخالق ، وأنها هبة بأجل ، وأن مصيرها الزوال ؟ لو أدرك هذا فإنه سيكون المؤمن الذى يوظف قوته لنجدة الضعيف ، لأنه يعلم أنه سيصبح يومًا ما أضعف منه .

أم أنه سيخيل إليه أن القوة قوته هو ، والعنفوان عنفوانه هو ، ويمضى يضرب باليمين وبالشمال .

لو فعل هذا فهو الملحد المنكر الذى لايتصور وجودًا لقوة أعلى منه .

والواقع أن الفرق بسيط . . فرق شعرة . . بين أن تحس بأنك قوى . وبين أن تحس أنك وهبت هذه القوة . . وأن قوتك عطية ومنحة .

ولكن هذا الفرق البسيط هو فرق هائل بين عقليتين وبين سلوكين .

وهو مفرق الطريق بين الإيمان والإلحاد .

ويبدو أن الدنيا هى الفرصة التى أتاحها الخالق لمخلوقاته لتختار طريقها بالفعل . . ليظهرنا على نفوسنا . . ويعرفنا على حقيقتنا .

وهو يعلم من البداية استحقاق كل واحد منا وقيمته . . ولكن نحن لانعلم . . ويتصور كل منا أنه الكامل الفاضل الذى يستحق الجنة . . ولهذا أراد بالدنيا أن تكون المحنة والامتحان الذى يعرف فيه كل واحد نفسه وقيمته . . حتى إذا انتهت الدنيا وانتهى الزمن . . وأعيد ترتيب النفوس فى

درجاتها الحقة . . ونزلت النفوس منازلها ومراتبها الصحيحة . . علمت كل نفس أنه العدل . . وعلم الأسفل أنه الأسفل بالفعل . . وأنه لابث فى هذه المنزلة السفلى إلى الأبد . . ولاظلم فى ذلك . . لأن هذا مكانه . . وهذا هو الجحيم وهو حق . كما أن الجنة حق . . وما الجحيم إلا الرتبة السفلى . وما الجنة إلا الرتبة العليا . وهذا هو التفاوت والتفاضل الطبيعى بين أعمال تتفاوت وتتفاضل بطبيعتها .

وقانون التفاوت والتفاضل هو قانون الوجود وهو العدالة بعينها .

وإنما الظلم بعينه أن يتساوى غير المتساوين .

وقصارى العدل الأرضى هو أن يساوى بين الفرص والتسهيلات . وأن يمنح كل فرد حق الدواء والكساء وفرصة التعلم . . ولكنه لايستطيع ولايصح له أن يساوى بين الناس ذواتهم .

وإلى أن تنتهى الدنيا سوف يظل هناك الأعلى والأدنى .

وفى العالم الآخر سوف يكون هناك الأعلى والأدنى .

وكل الفرق أن الأرواح فى عالم الأبد سوف تنزل منازلها الحقيقية . على حين يحاول كل إنسان فى الدنيا أن يغتصب مالا يستحق . ويحاول أن يعلو على الآخر غدرًا وغيلة .

مغرور جدًا

الإنسان مغرور جدًا . ينظر إلى نفسه باعتباره مركز الكون . ويتصور أن النجوم علقت كالفوانيس فى السماء لتضىء له طريق العودة إلى البيت وهو سكران .

وإذا كانت فى الدنيا بهائم فهى مخلوقة ليركبها .

وإذا كانت للخيول ذيول فليصنع منها المنشات .

وإذا كانت الزهور تعشش على شباكه فقد فعلت هذا مع سبق العمد والترصد . لتقدم له فروض التحية والولاء، وتضرب له سلامًا .

ودود الأرض منتظر فى الطين طول الوقت حتى يلتقطه بيديه الكريمتين . ويجعل منه طعمًا لصيد السمك .

والغزلان الجميلة تسرح فى البرارى فى انتظار رصاص بندقيته المكرمة لتسقط عند قدميه مهللة مكبرة .

والذهب فى أعماق المناجم ينتظر بفارغ الصبر اللحظة السعيدة التى يتكوم

فيها فى خزائنه ، أو يتبعثر على مائدة قماره .

وإبليس نفسه خلق ليكون فى خدمته فى البارات والنوادى الليلية والبيوت السرية . .

الكل يعمل من أجله . . هو . . سيد الخلائق . . الذى خلقه الله على صورته . .

ومن الطبيعى أن يفكر الفلكيون البسطاء فى العهد الغابر بنفس الطريقة ، فيتصورون أن الكرة الأرضية هى أيضًا مركز الكون . تدور حولها الشمس ونجوم الفلك العظيم كله .

ولكن الأمر تغير كثيرًا حينما انطلق التليسكوب الحديث يتأمل السماء .

وبدأ الإنسان يبحث عن مكانه الحقيقى فى هذه المتاهة التى اسمها الدنيا .

ومن هذا اليوم فقد الإنسان مركزه وسقط من حالق وصفعته الحقيقة المرة تلو الحقيقة المرة .

اكتشف أن الشمس ليست من توابع الأرض وإنما العكس هو الصحيح ، والأرض هى التى تدور مع ثمانية من توابع أخرى فى فلكها . .

ثم اكتشف أن المنظومة الشمسية كلها تدور حول مجمعة نجمية هائلة وتقطع دورتها الكاملة كل ٢٢٥ مليون سنة حولها . .

هذه المجمعة النجمية الهائلة هى بقية عائلة الشمس من النجوم واسمها المجرة ، وتتألف من حوالى مائة ألف مليون نجم ، وكثير من هذه النجوم له توابع وكواكب مثل الشمس .

إلى هذه الدرجة تضاءلت الأرض نسبة إلى الكون ، وتضاءل الإنسان

من فوقها . . فأصبحت نسبة ذرة رمل فى متاهة .

ولكن الأمر تفاقم أكثر وأكثر وازداد حال الأرض مهانة . وحال الإنسان ذلا حينما راح يبحث أبعد وأبعد فى أعماق السماء .

اكتشف أن مايراه فى السماء ليس مجرة واحدة وإنما عديد من المجرات مرتبة فى عناقيد . .

عناقيد من المجرات .

عنقود مجرتنا يحتوى على حوالى ١٧ مجرة . وهناك عناقيد تحتوى على مئات المجرات . .

ويبلغ عدد المجرات التقريبى فى مدى الرؤية الممكنة حوالى مائة ألف مليون مجرة . .

وفى كل مجرة مائة ألف مليون نجم . .

ولكل نجم كواكب .

والأرض بجلالة قدرها ليست سوى أحد هذه الكواكب . . والإنسان ليس سوى أحد المخلوقات على هذه الأرض .

وبهذا فقد الإنسان كرامته تمامًا .

لم تبق له إلا كرامة إدراك هذا كله . . وإلا أن يعترف فى أمانة وصدق بمكانه وقدره الحقيقى فى فضاء الكون . وقد تضاءل إلى برغوث وأتفه من برغوث . . مجرد هباة معلقة فى ظلمة السماء هو والأرض التى يقطن عليها .

والعلم لم يتركه فى حاله .

وإنما راح العلم يقدم الدليل خلف الدليل على احتمال وجود الحياة فى

كواكب أخرى . . بل فى النجوم أيضًا بل فى كل مكان .

فهناك كواكب ظروف الطقس والجو فيها مشابهة لظروف الأرض . . ثم إنه ليس من المحتم أن تكون كل حياة هى حياة من لحم ودم معتمدة على الأكسجين والماء ودرجة الحرارة المعتدلة . .

من الممكن أن تكون للحياة صور أخرى تعتمد على غازات أخرى لتتنفس وتعتمد على درجات حرارة عالية مناسبة لتقوم بوظائفها .

ممكن أن توجد مخلوقات أجسامها من الإلكترونات والأيونات والحرارة الملائمة لوظائفها هى الحرارة فى جوف الشمس . .

لاتوجد حدود لتصانيف الحياة الممكنة .

وليس هناك معنى لأن نحدد إمكانيات الحياة بخيالنا نحن . . هذا غرور انتهى زمنه .

وهناك علامات تبعث على الشك والريبة . فالنجوم والكواكب كلها ترسل إشارات لاسلكية ، وبعض هذه الإشارات لها نظام خاص . . ومن الممكن أن تكون شفرة ولغة لانفهمها .

وعلى المريخ ثلوج تنحسر تبعًا لفصول أشبه بالربيع والخريف عندنا . . وفيه طواقٍ من الجليد تذوب من على القمم فى فصل الصيف .

وفى أعماق السماء وبين النجوم والكواكب التى لاحصر لها تتباين الظروف فى تباديل وتوافيق لاحصر لها أيضًا . ويمكن أن تنشأ حيوات من كل جنس ونوع .

° ° °

وفى الكون الأصغر ماهو أعجب من الكون الأكبر . .

فى قطعة حديد لاتتجاوز رأس الدبوس حجمًا عالم من الذرات . كل ذرة أشبه بفلك مصغر نواة تدور حولها الإلكترونات مثل الشمس وكواكبها . . وفيها قوة لو انطلقت يمكن أن تغرق قارة بأسرها فى قاع المحيط .

ثم إن نواة الذرة ليست مجرد نواة بسيطة كما كان معتقدًا . . وإنما هى منظومة شديدة التعقد ، مؤلفة من أكثر من ٣٢ جسيمًا مختلفًا .

ثم هناك أكثر من نوع من المادة . شكرًا للعلم الذى عقد لنا المسائل أكثر . فالمادة فى نظره لم تعد هى المادة الواحدة وإنما هناك مادة موجبة ومادة سالبة . . مادة عادية ومادة مضادة .

والمادة المضادة لها قوانين مضادة لكل مانعرف من قوانين . فإذا كانت تفاحة نيوتن تسقط من على الشجرة على الأرض تبعًا لقانون الجاذبية ، فإن التفاحة المصنوعة من المادة المضادة تطير مبتعدة عن الأرض وملقية بنفسها فى الفضاء فى لحظة انفصالها من شجرتها ، وتبعًا لقانون الجاذبية أيضًا . . لأن قصورها الذاتى سالب وليس موجبًا . . إلخ . . إلخ . . إلخ . .

وهكذا يمكن أن تتخيل لنفسك عالمًا عجيبًا من المادة المضادة يسير فيه كل شىء بالعكس . حتى الزمن يسير بالعكس فيتطور إلى الماضى بدلا من المستقبل .

والعلم يمكن أن يقودك إلى الجنون إذا لم تترفق بنفسك وتأخذ منه جرعة جرعة حسب طاقتك .

والعلم لايستبعد احتمال أن تكون الأطباق الطائرة هى بداية غزو فلكى للأرض من العالم الخارجى .. محاولات أولى استكشافية . وكل شىء أصبح ممكنًا بعد أن سقط الإنسان من برجه العاجى وفقد غروره الساذج الذى كان يتصور فيه أنه جالس على عرش الكون .

وغريب أن يظل الغباء مسيطرًا بعد كل هذا . ويظل الإنسان يتصرف بعقلية أرضية محلية فيقاتل جاره على قطعة أرض .. وتذبح دول كبرى غنية دولا صغرى فقيرة لتستعمرها وتحتلها فى حين أن كنوز الكون كله مفتوحة أمامها ، والعلم مفتاحها السحرى فى يدها .. وفى إمكانها أن تمتلك المحال وتغزو المجهول وتضع يدها على التراث اللانهائى للقوة والمعرفة .

ولكن يبدو أن ذلك المغرور بالرغم من كل شىء لم يفقد غروره بعد وهو أكثر من مغرور .. فهو غبى أيضًا محدود الأفق .. جاهل بالرغم من وسائل العلم فى يده .

الطاقة الذرية التى اكتشفها سوف يقتل بها نفسه بدلا من أن يفتح بها الكون .

ووسائل الدمار سوف يوجهها إلى نفسه بدلا من أن يوجهها إلى المرض والوباء والشيخوخة .

وأذكر الآن كلمة لحكماء اليوجا الهنود . أن العالم مبنى على العدل ولا ظلم هناك . ومايتنزل بالإنسان من قدر هو بالفعل يستحقه .. وكما يفكر الإنسان يكون .. وكما تضمر فى نفسك تسير حياتك ..

فهل سوف تثبت بأفكارنا وأفعالنا — نحن المغرورين الأغبياء — أننا

لانستحق الحياة ؟

وهل تنزل بأنفسنا العقاب كل يوم وننفذ بأيدينا ناموس العدالة ؟

وهل جنسنا إلى فناء .

أو أن المنقذ سوف يظهر فى اللحظة الأخيرة .

المخلص الذى سوف يسمع الكل كلمته ؟

إن أجراس العلم تدق الإنذارات كل يوم ولاأذن تسمع .. والمفكرون يدقون على القلوب .. والقلوب مغلقة .. ربما لأن ضمائر هؤلاء المفكرين أنفسهم يسكنها نفس الزيف والنفاق والغرور .. وشعاراتهم لاتنفذ إلى القلوب ، لأنها شعارات المرتزقة وأكاذيب المتبهرين .

والإنسان يتحدث بغرور عن الأغبياء والأذكياء .. عن البيض والسود .. عن المتقدمين والمتخلفين .. وهو لايدرى أن الكل سود . والكل أغبياء . والكل متخلفون . والفرق بينهم هو فرق فى عدد المخالب التى يقتل بها كل واحد نفسه ويقتل بها أخاه .

العلم ينبت مزيدًا من المخالب .

والتقدم ينبت مزيدًا من المخالب .

وإذا كان العلم يعطى مزيدًا وفائضًا من القمح فإنهم يلقونه فى البحر حتى يزيد سعره .

وهذه هى أخلاق إنسان هذا العصر .

متى يفيق هذا الإنسان ويعرف الهوة التى يسير إليها

مخير أم مسير

يسألنى القراء دائمًا فى استغراب .. كيف وصلت إلى قرارك الذى تردده فى كل كتبك ومقالاتك بأن الإنسان مخير لامسير.

كيف يكون الإنسان مخيرًا وهو محكوم عليه بالميلاد والموت والاسم والأسرة والبيئة .. ولاحول له ولاقوة .. ولا اختيار فى هذه الأشياء التى تشكل له شخصيته وتصرفاته.

والقراء يقعون فى خطأ أولى منذ البداية حينما يقيمون علاقة حتمية بين البيئة والسلوك .. وبين الأسرة وتقاليدها وبين الشخصية .. وهو تفكير خاطئ .. فلا توجد حتمية فى الأمور الإنسانية .. وإنما يوجد - على الأكثر - ترجيح واحتمال وهذا هو الفرق بين الإنسان والجماد وهذا هو الفرق بين الإنسان وبرادة الحديد.

برادة الحديد تطاوع خطوط المجال المغنطيسى فى حتمية وجبرية وتتراص فى خطوط المجال حتمًا حينما نرشها حول المغنطيس.

أما الإنسان فإن علاقته بظروفه لاتزيد على كونها احتمالا أو ترجيحًا .
الابن الذى ينشأ فى عائلة محافظة محتمل أن ينشأ محافظًا هو الآخر بمجرد
احتمال . . وكثيرًا ما يحدث العكس . فنرى هذا الابن وقد انقلب متمردًا
ثائرًا على التقاليد . محطمًا لها . .

وهذا هو الفرق بين المسائل الآلية الميكانيكية والمسائل الإنسانية . .
ونفس الكلام يقال فى البيئة . .

البيئة تشكل الإنسان . . ولكن الإنسان أيضا يشكل البيئة .

ونظرة سريعة فى المجتمع العصرى حولنا سوف ترينا كيف أخضع
الإنسان مشاكل الحر والبرد والمسافات بعقله وعلمه . واستطاع أن
يسودها . فهو يكيف الهواء بالمكيفات . وهو يهزم المسافات بالمواصلات
السريعة والبرق والهاتف .

الإنسان ليس كتلة هلامية سلبية تشكلها حتميات البيئة . . . ولكنه
إرادة صلبة فى ذاتها لها حريتها فى توجيه الأحداث .

وهذا هو الإنسان الذى ولد طفلا تحكمه أسرته وبيئته ومقتضيات اسمه
وتقاليده . . ها هو ذا يهاجر ويغير اسمه وبيئته وأسرته وينتقل إلى مجتمع
جديد فيصنع انقلابًا فى هذا المجتمع الجديد ويغيره من أساسه .

وها هو ذا يموت فيترك كتابًا . . فإذا بالكتاب يغير التاريخ .

وصحيح أن الإنسان قليل الحيلة فى الطريقة التى يولد بها وفى الطريقة
التى يموت بها . . ولكنه بين ميلاده وموته يصنع حضارة . . الله أعطاه
القدرة على أن يبنى ويهدم ويحرر ويتحرر ويفكر ويبتكر ويخترع ويفجر ويعمر

ويدمر . . وسلمه مقاليد الخير والشر وحرية الاختيار .

وحواجز البيئة وضغوط الظروف لا تقوم دليلا على عدم الحرية بل هى
على العكس دليل على وجود هذه الحرية . . فلا معنى للحرية فى عالم
بلا عقبات . . وفى مثل هذا العالم الذى بلا عقبات لا يسمى الإنسان حرًا .
إذ لا توجد لرغباته مقاومات يشعر بحريته من خلال التغلب عليها .

والحرية لاتعبر عن نفسها إلا من خلال العقبات التى تتغلب عليها . .
فهى تكشف عن نفسها بصورة جدلية من خلال الفعل ومقاومة الفعل .

ولهذا كانت الضغوط والعوائق والعقبات من أدلة الحرية وليس
العكس .

والفيلسوف الغزالى يحل المشكلة بأن يقول إن الله حر مخير مطلق التخيير
والمادة الجامدة مسيرة منتهى التسيير . . والإنسان فى منزلة بين المنزلتين .
أى أنه مخير مسير فى ذات الوقت . . مخير بمقدار مسير بمقدار .

وتوضيحًا لكلامه أقول إن الإنسان حر مطلق الحرية فى منطقة
ضميره . . . فى منطقة السريرة والنية . . . فأنت تستطيع أن تجبر خادمك
على أن يهتف باسمك أو يقبل يدك . ولكنك لا تستطيع أن تجبره على أن
يحبك . . فمنطقة الحب والكراهية وهى منطقة السريرة منطقة حرة حررها الله
من كل القيود ورفع عنها الحصار ووضع جنده خارجها . .

لا يدخل الشيطان قلبك إلا إذا دعوته أنت وفتحت له الباب .

وقد أراد الله هذه النية حرة لأنها مناط المسئولية والمحاسبة .

أما منطقة الفعل فهى المنطقة التى يتم فيها التدخل الإلهى عن طريق

لا تستخف بذبابة تقف على طعامك . فهؤلاء الرجال كالثيران يدوخون العالم وقد تصرعهم ذبابة .

والإسكندر المقدونى قتلته بعوضة .

إنها ليست نكته ولكنه التاريخ . فالإسكندر الذى خرج من مقدونيا فاتحاً وهب على العالم القديم كالإعصار لم يعد إلى بلاده ثانية ، فقد مات بالملاريا فى أثناء عودته من الهند بلذعة بعوضة . ولا أحد يدرى أين دفن .

وقد تعبث بقدمك تحت شجرة غداً فتكتشف قبر الإسكندر وتصبح أغنى رجل وأشهر رجل فى الدنيا ، وتصبح حديث الصحف لعدة سنوات .

فقط لا تقل على أحد إنه تافه . احترم كل شىء مهما صغر شأنه : الطفل ، والحشرة ، وزبال الطريق ، وجرسون المقهى ، وبهلوان السيرك ، ومن لا حيلة له ولا صولجان فى يده . فالله وحده يعلم من فى الغد يكون فى يده الصولجان . إذا فعلت هذا فإنك سوف تخطو أول خطوة لتكون رجلا حكيماً .

الجنون العام

ليس هناك أغرب من عادة شرب الدخان .

إن يصرف رجل عاقل نقوده فى إحراق بعض المخلفات واستنشاق دخانها اللاسع الخانق الكريه .

يدخن ويسعل ويبصق . ثم يعود فيبتلع الدخان ويسعل ويبصق .

ويقول بصوت أجش مشروخ إنه يشكو من برد مزمن . وإنه لهذا السبب قد استبدل الدخان الإنجليزى بالدخان التركى .

ثم ينفث حلقات الدخان وهو يحملق فى الفراغ وفمه مفتوح ، وقد وضع ساقاً على ساق ، وسبح بخياله فى حالة انعدام وزن لا يفكر فى شىء .

مشهد كاريكاتورى من مسرح لا معقول .

قصة بلهاء من خمس دقائق تبدأ بشطة عود كبريت ، ثم حركات استعراضية من رجل عجيب يأخذ أوضاعًا بهلوانية فى كرسيه ويسترخى ويسرح ويشفط وينفخ ويسعل ويبصق .

الظروف والأسباب والملابسات ليجعل الله أمرًا ما ميسرًا أو معسرًا حسب نية صاحبه .

(فأمّا من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى . وأمّا من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) سورة الليل

يمهد الله أسباب الشر للأشرار .. ويمهد أسباب الخير للأخيار ..

ليخرج كل منا ما يكتمه ويفصح عن سريرته ونيته ويتلبس بفعله .

وبهذا لا يكون التسيير الإلهى نافيًا أو مناقضًا للتخيير . فالله يستدرج الإنسان بالأسباب حتى يخرج ما يكتمه ويفصح عن نيته ودخيلته ويتلبس باختياره .

الله بإرادته يفضح إرادتنا واختيارنا ويكشفنا أمام أنفسنا .

ومن ثم يكون الإنسان فى كتاب الله مخيرًا مسيرًا فى ذات الوقت .. دون تناقض . فالله يريد لنا ويقدر لنا حتى نكتب على أنفسنا ما نريده لأنفسنا وما نخفيه فى قلوبنا وما نختاره فى أعمق الأعماق دون جبر أو إكراه . وإنما استدراجًا من خلال الأسباب والظروف والملابسات

وفى إمكان الواحد منا أن يبلغ ذروة الحرية بأن تكون إرادته هى إرادة الله واختياره هو اختيار الله وعمله هو أمر الله وشريعته .. بأن يكون العبد الربانى الذى حياته هى طاعة الناموس الإلهى .. فيعبد الله حبًا واختيارًا لا تكليفًا .. فيكون الحر الذى يقول عنه الله :

« عبدى أطعنى أجعلك ربانيًا تقول للشىء كن فيكون »

إنه الحب الذى قال عنه المسيح :

« لو كان فى قلبك ذرة إيمان وقلت للجبل انتقل من مكانك لانتقل من مكانه » .

كما يحدث أن نعطى من ذات نفوسنا لمن نحب كذلك يعطى الله من ذاته لأحبابه .. فيحقق لهم ما يشاءون فيكونون الأحرار حقًا .

هل كانت مصادفة

يحلو دائما للمفكر المادى أن يقول إن الإنسان خلق مصادفة . .
من أخلاط المواد المتخمرة فى طين المستنقعات منذ خمسة آلاف مليون سنة حدث بالمصادفة تفاعل أدى إلى نشأة الخلية . . . وهو لا يقول لنا كيف حدث هذا التفاعل ، ولا كيف حولت المصادفة الطين إلى خلية حية . .
وإنما هو يقول إن هذا الأمر لابد قد حدث ، وإننا لا يجب أن ندهش ، فالخمسة آلاف مليون سنة زمن طويل جدًّا . . ولو أن قردا جلس يدق على آلة كاتبة ويلهو بأصابعه مدى خمسة آلاف مليون سنة من الزمان فإنه لابد سيحدث بالمصادفة أن يكتب بيتًا لشكسبير .
حسنًا . . . صدقنا وآمنا أنه بمصادفة فردية لا إحكام فيها ولا تدبير تحول الطين إلى خلية حية . . . وماذا بعد ؟ .
إن المفكر المادى يعود فيهرش مخه ليقول إنه بمصادفة أخرى تطور الكائن الوحيد الخلية إلى كائن متعدد الخلايا .

ثم يعود فيهرش رأسه ليقول إنه بخبطة عشوائية ثالثة تفرع طريق الحياة إلى سكتين . سكة الحياة النباتية التى اختارت النمو الثابت فى الأرض . . وسكة الحياة الحيوانية التى اختارت الحركة وراحت تقتحم البر والبحر والجو بنسلها المغامر الطموح .

وهو لا يكتفى بهذه المصادفات ، وإنما يعود فيهرش رأسه ليختلق سلسلة من المصادفات قادت التطور من حيوانات البحر الرخوية الهلامية إلى الحيوانات القشرية ، إلى الأسماك ، إلى الضفادع ، إلى الزواحف ، إلى الطيور ، إلى الثدييات .

ثم يعود فيهرش قفاه ويخرج بمجموعة مصادفات أخرى ليحول بها الكلاب إلى حمير ، إلى خيول ، إلى زراف . إلى نسانيس ، إلى قرود .

وهى مصادفات يخجل مؤلف سينمائى درجة ثالثة يكتب وهو مخمور فيلمًا لبنانيًا ساقطًا – أن يكتبها فى روايته .

ولكن المفكر المادى الذى لا يؤمن بالخجل ، والذى يعتقد أنه حفيد بالمصادفة لجد حمار يعود فيخلق سيلا من المصادفات يحول بها الشمبانزى إلى غوريلا ، والغوريلا إلى إنسان . . ثم يفرك يديه ويتنفس الصعداء فقد انتهى من المشكلة وأثبت أن الإنسان خلق بالمصادفة ويموت بالمصادفة

ولا أفهم لماذا لا يتركنا المفكرون الماديون نعيش اعتباطًا وعلى مزاجنا ما دمنا قد جئنا بالمصادفة ونموت بالمصادفة وما دامت الحياة من بدئها إلى نهايتها خبط عشواء فى خبط عشواء . . وليس بعدها إلا التراب .

لماذا يثيرون هذه الحروب الدموية ويضربون الناس بعضهم ببعض فى معركة مذاهب لا نهاية لها ؟

لماذا هذا العنف والقهر والجبر والسحق ؟

ومن أجل ماذا ولا حق هناك . . إنما هى مهزلة من المصادفات جاءت بنا إلى الدنيا بدون حكمة ثم هى تقضى علينا بدون معنى . . ثم يكون الصمت والتراب والعدم بلا بعث وبلا حساب . هكذا يقولون . . وهكذا يعتقدون . . فلماذا هذا الجنون ولماذا قتل الناس وذبح الناس . . إذا كانت هكذا عقيدتهم . ؟

ولن أناقش حكاية المصادفات الساذجة . فهى لا تحتاج إلى مناقشة .

ويكفى أن ننظر إلى جناح فراش بنسجه وألوانه ونقوشه لنعرف أننا أمام فنان مبدع وريشة ملهمة لم تترك بقعة واحدة ولا خطًا واحدًا للمصادفة . . وإنما هى سيمفونية رائعة من الخطوط والألوان .

بعوضة تافهة تضع بيضها على الماء ، فنكتشف حينما ننظر أن كل بيضة لها كيسان للطفو . .

من علم البعوضة قوانين أرشميدس لتصنع هذه الأكياس الهوائية لتعويم بيضها على الماء ؟

أشجار الصحارى وهى تنثر بذورها . . فإذا لكل بذرة أجنحة . .

من علم الأشجار قوانين الحمل الهوائى ؟

وكيف أدركت تلك الأشجار التى بلا عقل أن على بذورها أن تقطع مئات وآلاف الأميال فى الصحارى بحثًا عن ماء ، فزودتها بهذه الاجنحة .

من علم الكتكوت أن يدق بمنقاره على أضعف مكان فى البيضة ليخرج ؟

من علم الحشرات فنون التنكر فراحت تتلون بألوان بيئاتها لتختفى عن الأنظار ؟

من علم النحل قوانين العمارة لتبنى هذه البيوت السداسية الدقيقة الجميلة من الشمع بدون آلات حاسبة وبدون مسطرة ؟

من يهدى الطيور فى رحلة الهجرة السنوية من نصف الكرة الأرضية إلى نصفها الآخر بدون بوصلة وبدون رادار . . عائدة إلى أوكارها ؟

ومثلها الأسماك التى تهاجر عبر المحيطات والبحار لتضع بيضها .

لماذا لا نعترف ببساطة وبدون مكابرة أن هناك خالقاً . وأنه هو الذى هدى رحلة التطور من الخلية إلى الإنسان . وأنه خلق كل شىء لحكمة وخلق الإنسان لهدف !

لماذا لا نعود إلى البداهة والفطرة السوية السليمة التى ترى الإبداع فى كل شىء من الذرة إلى ورق الشجر إلى جناح الفراش ، إلى الشموس والمجرات فى السماء . . فنصل إلى النتيجة البسيطة . . إن مثل هذا الإبداع ومثل هذا الخلق لا يمكن أن يكون سدى . . والإنسان لا يمكن أن يخلق عبثاً ليموت عبثاً . . وإنما للقصة بقية . . وللموت ما بعده . . .

أم أن الجد الحمار قد خلف آثاره التى لا علاج لها فى أحفاده المفكرين الماديين الذين يقتتلون على الهباء ويدورون فى الخواء .

قطار اللقة

منذ ألف سنة كان أقصى ما يطمح فيه إنسان قطعة أرض وبضعة رءوس من الماشية . . كان هذا هو الثرى الأمثل فى ذلك العصر . . وكان أقصى ما يحلم به ذلك الثرى هى عربة مطهمة يجرها حصان ليدخل بها مجتمع الوجهاء وأهل الشياكة .

واليوم نقول عن من يملك العربة والحصان إنه « عربجى » وهو فى اعتبارنا من الناس الدون .

أما أهل الشياكة والوجاهة فقد استبدلوا بالأرض العمارات . . ثم استبدلوا بالعمارات الشركات . . ثم استبدلوا بالشركات مجرد دفتر سندات أو دفتر شيكات بحجم الجيب . . . مجرد رأس مال يتوالد من تلقاء ذاته بالإسهام فى أى مشروع .

وانتهى إسطبل المواشى ليحل محله كراج عربات مرسيدس .

ثم انتهى أمر الكراج وتركه الأغنياء للسوقة والناس الدون . . وصار

الواحد منهم يمتلك طائرة خاصة أو مرسى لليخوت أو باخرة .

وغدًا تصبح الطائرات من أملاك الفقراء ويظهر الأغنياء الوجهاء الذين يملكون الصواريخ والسفن الفضائية والأقمار الصناعية ، وتصبح رحلة « الويك إند » عشاءً ساهرًا فى المريخ .

الزمن استدار وانتقل الناس من حال إلى حال بسرعة غريبة ، وأحلام زمان أصبحت الآن متاحة للكل .

والفلفل والحبهان الذى كانت تحمله السفن من الهند عبر رأس الرجاء الصالح فى رحلات مهلكة محفوفة بالأخطار ليوزن بالذهب ويوضع فى الخزائن مع المجوهرات ولا يظهر إلا على موائد أصحاب الملايين . . ومثله مناديل الحرير الهندى التى كنا نقرأ عنها فى بيوت اللوردات فى روايات زولا وبلزاك . كل هذا نزل ليصبح فى متناول السوقة .

والفلفل والحبهان الآن عطارة الفقراء .

والحرير طرده النيلون والداكرون والتريلين من السوق فهبط إلى نصف ليرة للمنديل ، وأصبح زينة متاحة للخدم وعاملات « المحلات » . أى إنسان من مستويات الدخل البسيطة يستطيع الآن أن يحصل على كثير من وسائل الترف التى كانت تحلم بها جدتى وجدى ويسيل لها اللعاب .

ومع ذلك فالبؤس موجود والتعاسة ما زالت هى القاعدة والشكوى مستمرة على جميع المستويات . تشهد بذلك أعمدة الصحف والأغانى والكتب وأخبار الإذاعات ووجوه الناس المربدة المتجهمة فى الشارع ومشاكساتهم الدائمة وصدورهم الضيقة بكل شىء .

لاشىء مما تصور الإنسان أنه سوف يسعده قد أسعده وهو ماكاد يمتلك ماكان يحلم به حتى زهد فيه وطلب غيره . . وهو دائمًا متطلع إلى مافى أيدى الآخرين غافل تمامًا عما فى يده . . ينسى زوجته ويرغب فى زوجة جاره مع أن زوجته أحلى وأجمل . . ولكنها الرغبة التى لا تشبع ، والتى يتجدد نهمها دائمًا وتتفتح شهيتها على كل ممنوع ومجهول .

ولهذا أقام بوذا ديانته على قتل الرغبة والخلاص منها باعتبارهاسبب الشقاء ، ولاخلاص من الشقاء إلا بالخلاص من الرغبة وقتلها والوصول إلى حالة من السكينة الداخلية الزاهدة فى كل شىء العازفة عن جميع الرغبات .

والله يكشف لنا الحقيقة بشكل أعمق فى القرآن فيقول إنه خلق الدنيا ولها هذه الطبيعة والخاصية فهى « متاع » .

« إنما هذه الحياة الدنيا متاع » .

و « المتاع » هو اللذة المستهلكة التى تنفد . . من خصائص الدنيا كما أرادها خالقها أن جميع لذاتها مستهلكة تنفد وتموت لحظة ميلادها .

فى كل لذة جرثومة فنائها . .

الملل والضجر والعادة ما تلبث أن تقتلها . .

هى الطبيعة التى أرادها الله للدنيا ، لأنه أرادها دار انتقال لا دار قرار . . ولهذا جعل كل لذة بلا قرار ولا استقرار . . لأنه لم يرد لهذه اللذات أن تكون لذات حقيقية وإنما أرادها مجرد امتحان لمعادن النفوس . . مجرد إثارة تختبر بها الشهامة والنبل والعفة وصدق الصادقين وإخلاص المخلصين .

والذى يدرك هذا سوف يستريح تمامًا ويكف عن هذه الهستيريا التى

تخرجه من شهوة لتلقى به فى شهوة وتقوده من رغبة لتلقى به فى أتون رغبة ، وتجره من جنون لترمى به فى جنون .

سوف يريح ويستريح ويحاول أن يروض نفسه ويستصفى روحه ويطهر قلبه ويعمل للعالم الآخر الذى وعد به الله جميع أنبيائه بأنه سيكون العالم الذى تكون فيه اللذة حقيقة .. والألم حقيقيًّا .

وهو لن يندم على ما سوف يفوته من لذات هذه الدنيا ، لأنه علم تمامًا وبالتجربة والممارسة أنها لذات خادعة تتفلت من الأصابع كالسراب .. وهو قد قرأ التاريخ وعرف أن مال قارون لا يزيد الآن بالحساب الحالى عن عدة مئات من الجنيهات بالعملة النحاسية .. وهكذا قدرت جميع خزائنه بالاسترلينى .. وما أكثر من يملك مئات الجنيهات الآن ويشكو الفقر ، ويلعن اليوم الذى ولد فيه .. مع أنه بحساب التاريخ أغنى من قارون .

إنها الخدعة الأزلية ..

تحلم بامتلاك الأرض فإذا بالأرض هى التى تمتلكك وهى التى تكرسك لخدمتها ...

تتصور أن المال سوف يحررك من الحاجة فإذا بالمال يفتح لك أبواب مطالب أكثر وبالتالى يلقى إلى احتياج أكثر .. وكلما أحرزت .. مليونًا احتجت إلى ثلاثة ملايين لحراسة هذا المليون وضمانه ...

وتدور الحلقة المفرغة ولا نهاية .

وهذه طبيعة عالمنا الكذاب الذى نمتحن فيه .

كلنا نعلم هذا .. ومع ذلك لا نتعلم أبدًا .

راعى شرج الملك

من أطرف ما فى كتاب الدكتور بول غاليونجى عن طب الفراعنة هذه الفقرة عن الطبيب « خوى » .

وقد وجد اسمه مدونًا على جدران معابد سقارة وأمامه هذه الألقاب : طبيب القصر الملكى ، عميد أطباء القصر الملكى .. المسيطر على سم العقرب .. المبجل لدى إله الطب .. المقرب لدى أنونيس . كبير أطباء الوجهين البحرى والقبلى .. راعى الشرج .

كان الطبيب « خوى » هو راعى شرج الملك تيتى ، وهذا يعنى أن البواسير والناسور مشكلة قديمة قدم التاريخ ، وأنها كانت من أمراض الملوك ، وأنها كانت من الأهمية لدرجة أن يلقب كبار الأطباء بأن الواحد منهم راعى شرج الملك .

لم أكن وحدى إذن الذى أصرخ من آلام البواسير . فقبل ذلك بثلاثة آلاف سنة كان هناك فرعون عظيم يصرخ مثلى من البواسير اسمه تيتى .

كانت هذه الحقيقة التاريخية فيها بعض السلوى لى . . والذين جربوا آلام جراحة البواسير يعرفون قيمة لحظة سلوى فى زوبعة العذاب التى تثيرها تلك الجراحة .

وضعت الكتاب جانبى على سرير المستشفى وقد أسعدنى أن حالى هو حال الملك تيتى .

وأعطيت ذراعى فى لهفة إلى الممرضة لتغرس فيه حقنة المورفين وقد تصورت أنى الملك تيتى فعلا .

وماذا تعنى ثلاثة آلاف سنة فى عمر الأبدية .

إنها لاشىء .. لاأكثر من ثلاث لحظات .. كل ماتغير فى الأمر أن الطبيب « خوى » هو الآن المبجل سليل الآلهة الدكتور عبد الله صبيح .. والمكان مستشفى الشبراويشى .. والزمان يناير ٦٩ بعد ساعات من إجراء الجراحة .

والألم الآن يذكرنى بنفسه .

وكل مافعله المورفين أنى أصبحت أحلم بالألم بدلا من معاناته بعينين مفتوحتين .. وقد كان حلمًا بطول الليل كله .

وفى الحلم كنت أرى أنى الفرعون تيتى الكافر الذى ألقى فى جهنم .

وفى جهنم اجتمع حولى الزبانية يضعوننى على خوازيق من نار ..

والسماء فوق حمراء كنحاس منصهر .

والزبانية لايرحمون .

والعذاب سوف يكون بطول الأبد .

وفى الحلم نسيت تمامًا أنها جراحة .

وكان هذا بتأثير المورفين الذى صور لى من الألم المؤقت دراما لا نهائية من العذاب .

وكانت أسعد مفاجأة أن يطلع علىّ الصبح ويتبخر ضباب المورفين وأكتشف أنى أتألم من جراح سوف تشفى .

وحمدت الإله الرحيم .

ما أجمل أن يهبنا الله الزمن الذى لا يدوم فيه شىء .

كل شىء يمضى ثم يصبح ذكرى .

أشد الآلام تتحول إلى مقالة طريفة تروى وأحاديث حول فنجان شاى .

أليست حياتنا معجزة .

وأليست معجزة أكبر أن تشفى وتلتئم جراح مفتوحة فى مجرى الشرج تتلوث كل لحظة بما يلفظه الجسم من فضلات .. تشفى وتلتئم تلقائيًا بدون بنسلين وبدون صبغة يود .. بالقدرة الإلهية التى وضعها الخالق فى الأنسجة .

ومن عجب أن الله حشد كل جنده عند مدخل الجسم وعند مخرجه .. عند الفم والحلق واللوزتين تشفى الجراح المفتوحة وتلتئم وهى فى مجرى اللعاب الملوث والأنفاس المحملة بالأتربة والجراثيم .. وتقطع اللوزتان فيلتئم مكانهما بلمسة ساحر .

وعند الشرج حيث تخرج الفضلات تموج بالميكروبات القتالة تلتئم الجراح المفتوحة بقدرة القادر الذى سلحنا بأمضى أسلحته .

ولعل هذا هو السبب فى الآلام حول منطقة الشرج حيث وضع الخالق أقوى شبكة من الأعصاب ونشر قنوات وأنهارًا من الدم والليمف ورصد الملايين من الكرات البيض والخلايا الحارسة التى تلتهم كل ميكروب وافد فلا تبق عليه .

وبعد هذا يشك شاك فى العناية والرحمة .

ويقول مفكر سطحى مثل سارتر إننا قد ألقى بنا فى العالم بدون عون . وقذفنا إلى الوجود لنترك بلا عناية وبلا رعاية .

ولو أن سارتر تعلم الطب كما تعلم الأدب ودرس الإنسان كما درس الوجود لعرف حقيقة نفسه ولقال كلامًا آخر .

ولهذا تخطر لى أحيانًا فكرة إلحاق كلية الآداب بكلية الطب . . فالإنسان والوجود حقيقة واحدة . ولا يمكن إدراك الأول . دون إدراك الآخر .

وملامح الروح مكتوبة على الخلايا وليست فى كتب أرسطو .

وشفرة العناية الإلهية مكتوبة على أوراق الشجر وعلى مناقير الحمام وبتلات الورد . .

الدودة التى يجعلها الله خضراء بلون الغصن الأخضر ليجعلها أقدر على الاختفاء عن عدوها . . والفراشة الملونة بلون الوردة . . والسلحفاة الصفراء بلون الصحراء .

بشرة الزنجى التى تتلون فى الشمس الاستوائية فتصبح سوداء كمظلة منصوبة عليه طول الوقت لتقيه لفح الشمس .

والبشرة البيضاء البلّورية الشفافة لأهل الشمال حيث تختفى الشمس طول

الوقت خلف الضباب . وحيث يشح الضوء لدرجة تجعل الجسد فى حاجة إلى كل شعاعة عن أى طريق مثل تلك البشرة الشفافة الزجاجية .

أجسام الحيتان التى صاغتها العناية تلك الصياغات الانسيابية كغواصات . . وكل سمكة وقد منحتها الطبيعة كيسًا يفرغ ويمتلىء بالهواء لتطفو وتغوص كما تريد .

أفواه الحشرات وقد شكلتها العناية على ألف صورة وصورة حسب وظائفها . . الحشرة التى تمتص كالذبابة تشكل فمها على صورة خرطوم . والحشرة التى تلدغ كالبعوضة تشكل فمها على صورة إبرة . والحشرة التى تقرض كالصرصور زودتها الطبيعة بمناشير ومبارد . .

والدودة التى تتطفل على الأمعاء زودتها الطبيعة بخطاطيف وكلابات حتى لا تقع فى تجويف الأمعاء وتجرفها الفضلات .

وكلما تكاثر الأعداء على مخلوق أكثر الخالق من نسله . فدودة الإسكارس تبيض أكثر من مليون بيضة فى الشهر ، وتنجب أكثر من مليون دودة .

وفى متاهات الصحارى حيث يشح الماء وتندر العيون خلق الله للأشجار بذورًا مجنحة لتطير مع الرياح فى الجهات الأربع وتحط فى ألف شبر وشبر من الأرض ، وترحل مسافات شاسعة وكأنها بعثات استكشاف تذرع الصحارى .

والخفاش الأعمى الذى لا يطير إلا فى الليل زودته الطبيعة بأمواج ألترا سونيك يستكشف بها طريقه .

والكتكوت الوليد ترشده الغريزة إلى أضعف مكان فى البيضة فينقرها ليخرج إلى الوجود .

والزنبور يعرف مكان المراكز العصبية عند فريسته فيحقنها بالسم ويشلها وكأنه جرّاح ماهر درس التشريح .

والنمل الذى قادته فطرته إلى اكتشاف الزراعة وتخزين المحصولات قبل أن يكتشفها الإنسان بملايين السنين .

وحشرة الترميت التى عرفت تكييف الهواء فى بيوتها قبل أن يعرف الإنسان الأبواب والشبابيك .

إن كل خطوة تخطوها فى الطبيعة حولك تجد فيها أثر الرحمة والعناية والرعاية .

لم يقذف بنا إلى الدنيا لنعانى بلا معين كما يقول سارتر .

إن كل ذرة فى الكون تشير بأصبعها إلى رحمة الرحيم .

حتى الألم لم يخلقه الله لنا عبثًا . . وإنما هو مؤشر وبوصلة تشير إلى مكان الداء وتلفت النظر إليه .

ألم الجسد يضع يدك على موضع المرض .

وألم النفس يدفعك إلى البحث فى نفسك .

وألم الروح يلهمك ويفتح آفاقك إلى إدراك شامل ، فالدنيا ليست كل شىء ، ولا يمكن أن تكون كل شىء وفيها كل هذه الآلام والمظالم . وإنما لابد أن يكون وراءها عالم آخر سماوى ترد فيه الحقوق إلى أصحابها ، ويجد كل ظالم عقابه .

وبالألم ومغالبته والصبر عليه ومجاهدته تنمو الشخصية وتزداد الإرادة صلابة وإصرارًا ، ويصبح الإنسان شيئًا آخر غير الحيوان وغير النبات .

ما أكثر ما تعلمت على سرير المستشفى .

وشكرًا لأيام المرض وآلامه .

السم والترياق

لكل شيء آفة من جنسه .

حتى الحديد سطا عليه المبرد .

الله خلق لكل شيء آفته التي تعتدي عليه . . .

خلق القطن وخلق دودة القطن .

خلق النبات وخلق الجراد .

خلق الأسنان وخلق السوس .

خلق العين وخلق الرمد .

خلق الأنف وخلق الزكام .

خلق الثمرة وخلق العفن .

خلق الإنسان وخلق معه جيشاً من الأعداء لاغتياله : من قمل ، وبق ، وبراغيث ، وبعوض ، وديدان ، وبلهارسيا ، وميكروبات ، وسل ، وجذام ، وتيفود ، وكوليرا ، وقراع ، وصديد .

ونفهم من القصة أنه يدفع من قوته وقوت عياله فى سبيل هذا الدخان .
ثم يعود فيدفع مرة أخرى ليعالج نفسه من هذا السعال والدخان .
ثم يعود فيدفع مرة ثالثة لينظف أسنانه من أوساخ هذا الدخان .
ثم يروى لنا أنه قرأ فى المجلة عن تسبب التدخين فى السرطان وفى نفس الصفحة قرأ إعلانات عن فوائد التدخين .

فإذا سألته وماذا ستفعل ؟

وقال لك سأستبدل لفافة التبغ بالسيجار ، أو السيجار بالشيشة ، أو الشيشة بالجوزة .

وتراه يصوم عن الأكل ولا يستطيع أن يصوم عن السيجارة .

وتراه يستمر فى هذا الانتحار الصغير كل يوم فيلق بنقوده وصحته فى البحر . ويقف يتفرج على الاثنين يغرقان وهو يسعل ويبصق ويلهث .

رجل مخبول تماماً .

ولكن هذا المخبول هو كل الناس .

كل الناس ينتحرون لسبب غير مفهوم .

العملة الصعبة التى تنفق فى استيراد التبغ والسيجار والمعسل فى العالم كافية لحل مشاكل المجاعة والفقر والجهل والمرض .

والإنسان المجنون ابتكر وسائل انتحار أخرى . غير التبغ . مثل الأفيون ، والحشيش ، والكوكايين ، والهيرويين ، وعقار الهلوسة والخمور بأنواعها .

ولم يكتف بهذا فاخترع أسلحة القتل السريع الأكيد مثل الرصاصة ، والقنبلة . والغاز السام .

ثم عاد فابتكر الأعذار والمبررات الجاهزة للقتل . مثل الصراع الطبقى . وتغيير التاريخ ، وإنقاذ الحرية .

والحرية ذاتها كانت دائماً هى المخدر الأكبر .

المدخن يقول لك : أنا أدخن لأنى حر .

ومدمن المخدرات يقول لك : أنا حر .

والذى يطلق أول رصاصة يطلقها ليكون حرًّا .

ودائماً الحرية هى أول ماتجهز عليه هذه الأسلحة .

ودائماً الحرية هى الضحية .

والإنسان القاتل والمقتول هما الضحية .

والجنون العام هو الحقيقة .

وهو طابع هذا الإنسان العاقل اللامعقول اللغز .

وخلق الحياة وخلق الحر والبرد ، والصقيع ورياح السموم .

لم يرد بالدنيا أن تكون دار سلام . . . وإنما دار حرب وصراع وبلاء وشد وجذب وكر وفر .

لأنه علم بحكمته أن حياتنا الدنيوية إذا أخلدت إلى الراحة والأمن والدعة والسلام ترهلت وضعفت وانقرضت .

وعالم الفسيولوجيا يقول لك إن سم الميكروب يحفز النسيج إلى الاحتشاد . . كما تدفع لسعة البرد الدم إلى الشرايين .

إن العدوان المستمر الذى جعلته الطبيعة شريعتها فى الأرض أراده الله لمخلوقاته تحديًا مستمرًّا . . . ليشحذ كل مخلوق وسائله ويبدع ويبتكر ويحتشد ويخرج أحسن ما يختزن من طاقات ، ويكون دائمًا على أكمل الصور الممكنة .

وبدون هذا التناقض والصراع والكفاح كان مصير الحياة إلى ضمور وتخاذل وتكاسل ثم انقراض تدريجي . . .

وهذا ما نشاهده فى الأفراد والأمم حينما تخلد إلى الراحة والترف ويطول بها حبل الأمن والسلام والدعة .

وكما خلق لنا الله المرض خلق لنا الدواء فى عشب ينمو تحت أقدامنا . . وفى شراب فى الينابيع التى تتفجر حولنا فى كل مكان . . وفى العناصر الكثيرة تحت الأرض وفوقها . . وأمدنا بالعقل الذى يبحث وينقب .

وللحكمة ذاتها ألقى الله وسط الدول العربية المتخاذلة المترهلة بعدو شرس هو إسرائيل . . ومكن هذا الجسم الغريب ليكون حافزًا إلى اليقظة

والاحتشاد .

إسرائيل هى الميكروب .

هى التحدى القائم فى الجسم العربى ليثبت حيويته ويشحذ طاقاته ويهب من نومه الطويل وينتفض من تخلفه .

وبرغم كل ظواهر اليأس فأنا متفائل شديد الثقة بالمستقبل .

فالسنن الكونية والقوانين الإلهية تعمل عملها فى الكيان العربى .

وما نعيش فيه من كارثة أراها على العكس مظهرًا من مظاهر القانون الأزلى لتصحيح الأشياء . . . فبهذا التحدى المستمر وبهذا الخنجر المسموم المغروس فى أحشائنا سوف نحتشد فى جسم موحد طال بنا الزمن أو قصر . . لنواجه محنة أن نكون أو لا نكون . . . وما نعيش فيه الآن هى أيام الحمى التى تسبق الشفاء .

إن خلافاتنا الداخلية وانقساماتنا الداخلية أشبه بالصديد الذى يتخلف فى الجراح من جراء التهاب النسيج بالسم الميكروبى والأجسام المضادة التى يفرزها .

وهى مرحلة يليها تدفق الدم من النسيج المحتقن ليغسل كل شىء ثم يعقب ذلك الالتئام والشفاء .

وهى أشياء نتعلمها مما يجرى على النسيج الحى حين يتكاثر عليه الأعداء .

وهى قوانين أزلية وضعها الله للخلية والجسم الحى والأمة والإمبراطورية . . . ولايستطيع أن يشذ عنها مخلوق

إن الذى يجعل من واقعنا الحالى سببًا لليأس لا يفهم الدنيا ولا يفهم التاريخ .

لقد تقاتلت الأمة الأمريكية قبل أن تتوحد فى حرب شرسة بين شمالها وجنوبها . . . وكذلك الصين . فلم يقل أحد إنها انتهت ، أو إنها كتبت وثيقة فنائها . . بل العكس هو ما حدث . . . فقد كتبت بهذا الدم ميلادها .

وفى الحساب الأزلى للأرباح والخسائر . . . وفى سجل التاريخ . . . لا تضيع نقطة دم واحدة . . . ولا تهدر ضحية . . . وإنما لكل شىء دوره فى صياغة النصر النهائى .

والنصر دائمًا للحق والخير .

الرد على التساؤلات

تصلنى أحيانًا من القراء تعليقات جادة وتساؤلات حول مقالاتى الأخيرة . . والبعض يلتقط عبارات من كتب قديمة صدرت لى منذ عشرين عامًا محاولا أن يشهد الناس . . . كيف كنت ملحدًا ثم أصبحت مؤمنا . . ياله من تناقض وجريمة لا تغتفر لمفكر . .

ويبدو أن المفكر الأمثل عندهم هو قطعة رخام لا تنتقل من مكانها . أو مستنقع آسن لا يتجدد ماؤه . أو حياة خاملة راكدة آلية لا تتطور .

ويتصور الواحد منهم الفضيلة والذمة فى أن يكتشف الكاتب خطأه فلا يصححه ولا يرجع عنه .

ويتصور الكمال فى العجرفة الفكرية والجمود والتعصب والثبات ولو على الخطأ (طالما أن هذا الخطأ فى صالحهم) .

ولو كنت مؤمنًا تحولت إلى الإلحاد لأخذونى بالأحضان ، ولقالوا هذا هو المفكر الشريف بحق . . . هذا هو رائد النقد الذاتى .

ولكن لما كان نقدنا لذواتنا على غير هواهم أصابهم عمى الألوان فرأوا الأبيض أسود ، ورأوا الفضيلة رذيلة ، والذمة خيانة .

ولقد حارب خالد بن الوليد ضد الإسلام بشراسة وأنزل الهزيمة بالمسلمين فى أُحد . . . ثم آمن وحمل لواء الدعوة وأصبح سيف الله المسلول ، فلم يقل أحد إنه رجل متناقض بلا مبدأ .

وحارب عمر بن الخطاب الدعوة الدعوة الإسلامية فى بدايتها بضراوة ثم اعتنق نفس الدين الذى سبه وسفهه وحاربه . فلم يشكك أحد فى إيمانه ولا فى صدقه ولا فى ذمته .

والإنسان فى شبابه مندفع بطبيعته ، يؤمن بالساذج البسيط . الواضح الملموس أمامه ، ولهذا فهو يستريح إلى المادية والفكر المادى ، لأنها لا تطالبه بشىء غير الموجود أمامه . فهى تبدأ من القريب المحسوس ولا تتجاوزه ، ولا تجهد الذهن استخلاصًا للحكمة من ورائه . . بل إنها لا تعتقد فى وجود حكمه . . لا شىء سوى المادة التى تتطور تلقائيًا بقوانينها الجدلية الخاصة .

والمفكر المادى لا يحاول حتى أن يسأل نفسه من الذى وضع فى المادة قوانينها الجدلية هذه .

وهو يرفض الدين لأنه غيبيات .

وهو نفسه غارق فى الغيبيات إلى أذنيه .

بل إن العلم نفسه الذى يتشدق به ويحتكم إليه غرق فى الغيبيات هو الآخر .

العلم يتكلم عن الإلكترون على أنه حقيقة . . . ولم ير أحد

الإلكترون . . . ولا نعلم عن الإلكترون إلا آثاره . . أما الإلكترون ذاته فهو غيب .

وبالمثل الموجة اللاسلكية لا نعلم عنها إلّا آثارها فى عمود الإرسال وجهاز الاستقبال . . لم ير أحد تلك الموجة الأثيرية ولم يعرف أحد كنهها .

بل الكهرباء ذاتها هى الأخرى طاقة لا شك فيها ومع ذلك فهى مجهولة الهوية تمامًا . . ولا نعرف عنها إلا مجموعة آثارها الظاهرة من حرارة إلى ضوء إلى حركة مغنطيسية .

فإذا قلنا لهم إن الله بالمثل عرفناه بآثاره وإن هويته غيب لم يعجبهم كلامنا .

بل إن المفكر المادى يقول فى جرأة عجيبة . . « فى البدء كانت المادة ثم تطورت المادة إلى كافة صور الحياة والفكر » وكأنه كان موجودًا لحظة بداية الخلق متربعًا فى كرسى بلكون يتفرج على ميلاد الدنيا .

هو يتكلم عن غيب ويبدأ من غيب . . ولا يملك إلّا افتراضات واحتمالات ونظريات . . ثم يتهمنا نحن بالغيبية .

وهؤلاء هم دراويش المادية لا وسيلة لإقناعهم ، لأنهم لايريدون اقتناعًا . . . وإنما هم اختاروا الجمود العقائدى وتشنجوا عليه ، واستراحوا إلى ما فيه من تبسيط مخل وتلخيص ساذج للحقائق الكونية . .

وليس أبعث للراحة من اعتقاد الإنسان أنه لا مسئولية هناك ، ولا بعث ولا حساب ، وأن له أن يفعل ما يشاء لا رقيب عليه ولا حسيب سوى البوليس والمخابرات .

ومثل هذه العقيدة المادية أقرب إلى قلب الشباب المندفع الذى يريد أن ينطلق على هواه بلا علامات مرور ، وبلا ضوابط ، وبلا مساءلة .

وليس صحيحًا أن الفكر الإلحادى المادى هو الذى أعطانا حياتنا المتقدمة بما فيها من قطارات وعربات وطائرات وصواريخ وراديو وتلفزيون . . فهذه الأشياء هى عطاء العلم . . والعلم تراث متاح للكل . . ولا مذهب له . . يطلبه رجل الدين كما يطلبه رجل الفكر من يمين ويسار .

كان العلم يرفع راياته فى مصر الفرعونية الوثنية كما كان يرفع راياته فى صدر الإسلام .

العلم تراث بشرى لا يستطيع أن يدعى أحد ملكيته وليس صحيحًا أن الدين يناقض العلم .

وديننا يأمر بالعلم فى أول آية من القرآن « اقرأ » .

أمر صريح بالعلم والتعلم فى أول حرف نزلت به تعاليمنا السماوية .

والعلماء عندنا هم ورثة الأنبياء . وهم فى القرآن فى درجة الملائكة (شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم) . والذى يتصور تناقضًا بين الدين والعلم لايعرف ما الدين ولا ما العلم . وإنما هو يريد أن يختلق لنفسه مبررًا للرفض . وما أسهل الرفض .

إنذار

اربطوا الأحزمة على المقاعد .

هذه العبارة التى تظهر بالنور الأحمر فى كل طائرة كلما بدأت فى الهبوط أو الارتفاع منذرة بأن تغييرًا خطيرًا يقع . أشعر الآن بأن مثل هذه العبارة تظهر فى عربة الحضارة التى نركبها جميعاً نحن الجنس البشرى فى هذا الزمان منذرة بالهبوط إلى مرحلة أسفل . .

أسمع هذا النذير . بأننا يجب أن نربط الأحزمة على المقاعد . ليس لأننا نرتفع .. وإنما لأننا نهبط . . ونهبط . . ونتدهور .

المذابح فى فيتنام . . القتل الجماعى فى نيجيريا . . انهار الدم فى أنجولا .. قتال العراق وإيران إحراق اللاجئين فى الأردن . . الحرب الأهلية فى لبنان .. تفجير القنابل الهيدروجينية تحت الأرض وتحت البحر . . وإطلاق صواريخ مدارية تحمل الموت فى أحزمة حول الأرض .

فى الشرق والغرب يخرج الوحش البشرى مخالبه ويلوح بأنيابه . . لم يعد يستحى ولم يعد يخجل . . لم يعد يلجأ إلى أسلوب الديبلوماسى المهذب الذى يتكلم باسم الحرية والديمقراطية وتحرير الشعوب من الاستغلال والاستعباد . . لم يعد يرفع راية السلام ويردد الشعارات النظرية البراقة ويسوق المنطق الفلسفى المحكم . . وإنما كشف النقاب فجأة عن حقيقته . .

فإذا بنا أمام دول كبرى تريد أن تسود . . وقوى تتصارع على السلطة لا غير . .

المعسكر الشيوعى خرج منه عملاقان يبادلان بعضهما العداوة أكثر مما يبادلان عدوهما المشترك الرأسمالية . . مناقضين بذلك منطوق الشيوعية ذاتها وكأنه مجرد حبر على ورق . . لم يعد التاريخ يحركه صراع الطبقات ، فها هنا معسكران هائلان . . بروليتاريا . . وبروليتاريا وكلاهما يتصارعان .

والرأسمالية بدورها بدأت تمارس علنًا أبشع جريمة فى التاريخ على أرض فيتنام والصهيونية كشفت عن وجهها فى لبنان . . والشيوعية فى أفغانستان

والأساطيل راحت تذرع البحار تستعرض عضلاتها .

والطائرات انطلقت تزمجر فى الجو وتتنافس فى بث الرعب .

والأقمار الصناعية راحت تتسابق فى التجسس .

والصواريخ . . كل صاروخ يقول للآخر . . أنا أطول منك مدى .

القوة . . القوة . . القوة . .

الحضارة المادية انتهت إلى تسخير العلم لصناعة القوة . . لابتكار وسائل الموت . . المجاعة ونقص التغذية والفاقة تفترس قارات . . والملايين ترصد

للسلاح . . وفائض القمح يلقى فى البحر ليرتفع سعره .

لقد أفلست الحضارة المادية . وإنى أعلن إفلاسها . . وأشعر بأن عربة الحضارة تهبط بنا إلى أسفل وأسفل وأسفل . .

وإن علينا أن نربط الأحزمة على المقاعد استعدادًا للخطر الماحق .

وعلينا أن نواجه أنفسنا بالحقيقة ونكف عن ترويج الأكاذيب ونكف عن التشدق بمجريات لا وجود لها .

فقد عادت عصور المرتزقة والانكشارية .

وهناك ألوف يقبضون مرتباتهم لأنهم يقتلون تحت أى راية .

والجاسوسية تحولت إلى فن . . «كيف تكون جاسوسًا مزدوجًا» تتجسس لأمتك وضدها وتعمل بذمتين ولحساب من يدفع أكثر .

والمذاهب تحولت إلى ذرائع للسلطة وللاستهلاك الصحفى وتبرير تحكم الأقوياء فى الضعفاء ، وظلم الأقوياء للضعفاء ، واستبداد الأقوياء بالضعفاء . ؟

وهذا إعلان إفلاس حقيقى .

لقد عجزت الفلسفة المادية أن تصنع إنسانًا وإن كانت قد صنعت قنبلة ، ونحن ماضون إلى سقوط محقق إن لم نبادر إلى تغيير دفة المركبة الحضارية كلها فى اتجاه آخر . هذه المرة ليس نحو فلسفة مادية . . ولكن نحو فلسفة تعترف للإنسان بروح وذات خلقها الله حرة جديرة بالخلود .

العودة إلى فلسفة روحية تأخذ من العلم كل ما يعطيه وتضيف عليه من خصبها .

ومن أين تخرج مثل هذه الفلسفة إلا من الشرق ! !

فهل يعود الإلهام فينبع مرة أخرى وهل تشرق شمس جديدة وهل يسود السلام والإسلام أم أننا نهبط إلى هوة النهاية ؟ .

الفهرست

صفحة

رقم الإيداع	١٩٩٠ / ٧٢٦٩
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-3064-2

١ / ٩٠ / ١٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم.. فأثرى ساحة الفكر والعلم.. وطَرَقَ أبوابًا جديدة لم تفتح من قبل.. فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات.. إلى جانب تلك المؤلفات التى تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الدينى والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة.. والتى لاتزال تثير مزيدًا من الجدل المفيد.

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع.

